الفصل السابع

ثورة يوليو والنهضة

أسباب قيام ثورة ٢٣ يوليو

مع النهضة الثقافيَّة التي شهدتها مصر في الحقبة الليبراليَّة تطلَّع قادة التنوير ورموز الوطنيَّة ونخبة المثقفين إلى حياة سياسيَّة أفضل تستجيب لكل مطالب الجماهير : فلاحين وعمال ومهنيين الذين يرزحون تحت خط الفقر وقد فتَّحت النهضة الثقافيَّة عيونهم على حقوقهم السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ولم يعد مقبولاً أن تظلَّ الحياة السياسيَّة في مصر على النحو التالي ، استعانة الملك فاروق بحكومات الأقليَّة التي لم تحقق إنجازاً حقيقيّاً ملموساً لمصر ، وإقصاء حكومة الأغلبيَّة التي كان يمثلها في ذلك الوقت حزب الوفد ؛ لذا استمر نضال الشعب المصري من أجل حياة دستوريَّة حقيقيَّة تعمل على إجلاء الإنجليز عن مصر ، وإجبار الملك على احترام الدستور ، والكفِّ عن نزواته التي فاحت رائحتها النتنة في كل مكان .

ونتيجة للضغط الشعبي المتزايد المطالب برحيل الإنجليز وإقامة الدستور ، وما حدث في حرب فلسطين من فساد وخيانة ظهرت جماعات لا تؤمن بالحياة البرلمانيَّة ولا بالأحزاب ، إنما تتبنى أفكاراً أيديولوجيَّة تؤمن بها وترى أنها هي السبيل الوحيد الصالح للبلاد والعباد ، من هذه الجماعات : جماعة الإخوان المسلمين، جماعة مصر الفتاة ، جماعة الحركة الديمقراطيَّة للتحرر الوطني "حدتو " الشيوعيَّة .

وهذه الجماعات كانت ترى أن الفساد في سنوات فاروق الأخيرة يضرب أطنابه في كل أجهزة الحكم حيث يتحكم في البلاد ملك مستهتر منغمس في الفسق والفجور تحوطه حاشية لاهمَّ لها إلا إشباع شهواتها ، وملء بطونها بالمال الحرام على حساب الشعب البائس الفقير. والشعب المصري مطحون منهوب تحت الاحتلال البريطاني ،

والعرش والمستغلين من الأجانب وأعوان الاستعمار من الخونة المصريين ، وأن إنقاذ شعب مصر من الاحتلال البريطاني والحكم الملكي الفاسد لن يتأتى إلا بثورة مسلَّحة يتولاها ويدبِّر لها المخلصون من الشباب في الجيش والشعب.

يقول اللواء جمال حماد [١] عن سوء الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مصر قبل الثورة : " كان سوء ملكيَّة الأراضي الزراعيَّة قد شكَّل ظاهرة الإقطاع الخطيرة في مصر قبل الثورة ، وأدَّى إلى خلل واضح في توزيع الأرض الزراعيَّة ففي الوقت الذي كان يملك فيه ١٢ ألف فرد فقط ثلث الأراضي الزراعية في مصر نجد أن حوالي ثلاثة ملايين فرد يملكون ثلثي هذه الأراضي الزراعية ، كما أن ٢٧ مالكاً من الأسرة المالكة وحدهم كانوا يمتلكون ١٤٣ ألف فدان ، وأصبحت الأغلبيَّة من الفلاحين من المعدمين واضطروا إلى العمل كمستأجرين صغار أو عمال زراعيين يعانون الفقر والحاجة لم يكن للعمال حقوق تحميهم من استبداد وتحكم أصحاب الأعمال فلا قانون للمعاشات ولا تأمينات اجتماعيَّة أو تعويضات محددة في حالة الإصابة ولذلك كان كبار الرأسماليين يبتزون عرق العمال ويستغلُّون جهدهم دون وجود أي قوانين لحمايتهم " [٢]

أسباب نجاح تنظيم الضباط الأحرار

لم يكن تنظيم الضباط الأحرار هو التنظيم الوحيد في داخل الجيش وخارجه فقد دفعت أحوال البلاد السيئة كثير من المخلصين من أبناء الوطن إلى تكوين تنظيمات سريَّة بهدف تخليص البلاد من المتسببين في شقائه ، وكانت وسائل هذه التنظيمات للوصول لهدفهم هذا تتمثل في اغتيال بعض الخونة والمفسدين ، أو كتابة منشورات تحريضيَّة ضدهم ، أو تنظيم مظاهرات ، أو تدمير بعض المنشآت .

---

(1) جمال حماد : أحد الضباط الأحرار ، وكتاب البيان الأول الذي أذاعه السادات صباح ٢٣ يوليو ، وأحد أبرز مؤرخي ثورة يوليو .

(2) اللواء جمال حماد " ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ " روز اليوسف ص ٢٣٦.

لكن هذه التنظيمات إذا استثنينا جماعة الإخوان المسلمين كانت قليلة العدد والعدة لا تملك الرؤية الشاملة – وإن حسنت نواياها – للإصلاح ، فهي وإن آمنت ببعض مبادئ الإصلاح فإنها لا تملك وسائل تحقيقها .

والحقيقة بعد حلِّ جماعة الإخوان المسلمين واعتقال قادتها عام ١٩٤٨، واغتيال الشيخ حسن البنا زعيمها عام ١٩٤٩ ، لم يعد هناك تنظيم قوي يعوَّل عليه في تغيير النظام القائم الذي لم يعد هناك أمل في إصلاحه .

التنظيم الوحيد الذي يمكن أن يعوَّل عليه فعل شيء لهذا الوطن كان تنظيم الضباط الأحرار فقد كان يملك بعض الأفكار الإصلاحيَّة التي تتمثل في إصلاح الجيش وتطهيره من عناصر الفساد والمفسدين وإقامة جيش وطني قوي ، والقضاء على الاستعمار وأعوانه الخونة في وادي النيل . وكان التنظيم يملك تحقيق هذه الأفكار الإصلاحيَّة بما لديه من تواجد قوي بين القوات المسلحة تمكِّنه من فرض رأيه ، واختيار من يمثله ، كما تمكِّنه من القيام بانقلاب عسكري إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك وكان وراء نجاح هذا التنظيم عدة عوامل أهمها :

١- حسن اختيار أعضاء التنظيم

إن السبب الأوَّل لنجاح تنظيم الضباط الأحرار يرجع إلى حسن اختيار أعضاء التنظيم وخاصة أعضاء اللجنة التأسيسيَّة الذين تكوَّن منهم مجلس قيادة الثورة بعد ذلك .

يقول الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي عايشهم عن قرب حيث عيِّن وزيراً للأوقاف في حكومة محمد نجيب : (٧ سبتمبر ١٩٥٢) " أنا أؤكد للتاريخ أن كلَّ أعضاء مجلس قيادة الثورة كانُّوا مجموعة قلَّ أن يوجد ما يفضلها من خيرة الرجال عبر التاريخ . " [1]

إن كلام الشيخ الباقوري يعبِّر عن صدق وطنية هؤلاء الرجال ، وإخلاصهم في عملهم ، وإن كان فيه مبالغة .

---

(1) نعم الباز " ثائر تحت العمامة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٠٥

٢- شخصية جمال عبد الناصر

السبب الثاني في نجاح حركة الضبَّاط الأحرار يكمن في شخصية جمال عبد الناصر التي فرضت على كل الضبَّاط الأحرار احترامها وتقديرها ، والثقة فيها ، ولم يكن جمال عبد الناصر يمتلك شخصيَّة كاريزمية فحسب بل كان شعلة نشاط يتواجد في كل مكان يتطلبه التنظيم التواجد فيه ، فلا يوجد اجتماع يخص التنظيم إلا كان عبد الناصر أبرز أعضائه ، ولا يوجد مناقشة حول التنظيم إلا كان له رأي مُعْتَبَر فيها ؛ فلا عجب أن ينتخبه أعضاء لجنة القيادة ثلاث مرات بالإجماع رئيساً عليهم أعوام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢.

يقول محسن عبد الخالق معللاً اختيار الضباط الأحرار لعبد الناصر رئيساً للجنة القيادة : " عبد الناصر كان قبل الثورة رجلاً ودوداً منصتاً طيباً ولهذا اخترناه ."(1)

٣- جماعيَّة القرار

السبب الثالث ، هو جماعية القرار فلم يكن هناك قرار مهم إلا وتناقش الضباط فيه مناقشة حرَّة يدلي فيها كلٌّ بدلوه لا حَجْر فيها على رأي ولا مصادرة فيها لفكرة وهذا في رأيي أهم ما ميَّز تنظيم الضباط الأحرار فقد قام على الشورى داخل لجنة القيادة .

٤- شخصية محمد نجيب

السبب الرابع في نجاح حركة الضباط الأحرار هو محمد نجيب فعلى الرغم من أن محمد النجيب لم يكن يشارك في اجتماعات لجنة القيادة لدواعي أمنيَّة فإن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم كانا على اتصال دائم به والتشاور معه في كلِّ خطوة خاصة بعد أن اختير قائداً للتنظيم في يناير ١٩٥٢ كذلك فإن كثيراً ممن انضموا للتنظيم كان أكبر حافز لهم للانضمام للتنظيم وجود محمد نجيب على رأسه .

٥- منشورات الضباط الأحرار

(1) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للترجمة والنشر ص ٤٢

السبب الخامس ، منشورات الضباط الأحرار تلك التي روَّجت للتنظيم ، وعرَّفت الناس به .

يقول جمال منصور الذي كتب المنشور الأول : " وفي اليوم التالي بعد الظهر ذهبت كعادتي إلى شقيقي سعد وإذا بي ألمح العربة الأوستن السوداء تقترب من المصنع وتقف على جانب الطريق وينزل منها جمال عبد الناصر ويلقاني بين ذراعيه في عناق وهو لا يكاد يصدق ما حدث ويقول لي : ما كنت أتصور مثل هذا النجاح لأول منشور لقد أحدث مفعول السحر في قلوب الضباط وأنزل الرعب في قلوب المسئولين إن الناس كلهم يتحدثون عن " الضباط الأحرار " وعن هذه الحركة الثورية التي يعيشها ضباط الجيش . " (1)

٦- نجاح الضبَّاط الأحرار في انتخابات نادي الضباط

أما السبب السادس ، فهو انتخابات نادي الضباط والنجاح الساحق الذي حققه محمد نجيب مرشح الضباط الأحرار .

يقول محمد نجيب : " كانت انتخابات نادي الضباط هي الخطوة الفعَّالة في طريق ثورة يوليو ، وكانت أول تحدٍ علنيٍّ لتنظيمنا السري ، وكانت الكلمة الأولى في ملحمة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. فقبل انتخابات النادي كانت اللجنة التنفيذيَّة لتنظيم الضبَّاط الأحرار تعتقد أنه ليس من الممكن القيام بالثورة قبل عام ١٩٥٥ لقد غيَّرت الانتخابات عقولنا وأحسسنا بقوتنا ، وأكدت لنا مدى ضعف الملك ونظامه " (2)

كل هذه العوامل تضافرت لتجعل من التنظيم قوة لا يستهان بها تهدد نظام فاروق المترهِّل . (3)

قيام ثورة ٢٣ يوليو

في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٢ يوليو عقدت " لجنة القيادة " اجتماعها الأخير في بيت خالد محيي الدين الذي يقول عن هذا الاجتماع : " عرض زكريا محيي الدين

---

(1) جمال منصور " في الثورة والدبلوماسية " مرجع سابق ص ٤٣
(2) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " مرجع سابق ص١٠١
(3) لمزيد من التفاصيل حول : حالة مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ونشأة الضباط الأحرار ، وعوامل نجاح تنظيمهم راجع كتابنا " آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة " دار غريب .

الخطَّة، وكانت الخطة بسيطة للغاية، ويمكن القول إنها اكتسبت عناصر نجاحها من بساطتها، وكانت تنقسم إلى مرحلتين:

١- المرحلة الأولى :

السيطرة على القوات المسلحة، وتحريك بعض القوات إلى مبنى القيادة في كوبري القبة، وأن يتم اقتحامه والاستيلاء عليه، على أن يتم في الوقت نفسه، اعتقال بعض كبار ضباط الجيش والطيران، وقادة الأسلحة المختلفة، حتى نضمن عدم تحريك أية قوات عسكرية للتصدي لنا.

٢- المرحلة الثانية :

إنزال قوات إلى الشوارع للسيطرة على عدد من المواقع المدنية : الإذاعة ، التليفونات ، قصر عابدين ... إلخ.

وكانت الخطة منطقيَّة فأنت لا تنزل الشارع إلا بعد التأكد من السيطرة الكاملة على القوات المسلَّحة ، ولا تقوم بمواجهة فعليَّة مع رأس النظام إلا إذا تأكدت من تجاوب الجماهير معك عبر نزولك إلى الشارع .

تحدث حسين الشافعي في الاجتماع وأعلن أن سلاح الفرسان جاهز، وأن لدينا (٣٢) ضابطاً جاهزين لتحريك قواتهم، وأننا نسيطر على (٤٨) دبابة و(٤٨) سيارة مدرَّعة، وعلى الكتيبة الميكانيكية وآلاي الخيالة: وتحدثت أنا لأقرر أن قوات الفرسان كفيلة بإنجاح الحركة، دونما حاجة لانتظار وحدات مشاة، أو انتظار وصول بقية كتيبة يوسف صديق . " [1]

وقبل أن تتحرك أي قوة من موقعها ، وقبل الخطوة الأولى في تنفيذ خطة الضباط الأحرار كان اللواء حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش قد استدعى قادة الأسلحة والمناطق الحرة عدا اللواء محمد نجيب مدير المشاة وقتئذ لخشيتهم منه واعتقادهم أنه العنصر الرئيسي المحرك للضباط الغاضبين إلى مؤتمر في العاشرة مساء بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بكبري القبة .

([1]) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ١٣٣، ١٣٤ بتصرف .

وقد تناسق عدم استدعاء محمد نجيب إلى المؤتمر مع خطة الضباط الأحرار التي كانت تقضي ببقائه في المنزل على أهبة الاستعداد دون أية حركة قد تثير الشبهات ضده ، إلى أن تنجح الخطة فيستدعى لتولي القيادة .

ولكن محمد نجيب علم من شقيقه على نجيب قائد قسم القاهرة بطبيعة موعد المؤتمر ، فأسرع بتبليغ ذلك شخصياً إلى عبد الحكيم عامر ، ونصحه بأن يتم اعتقال القادة المؤتمرين أثناء خروجهم حقناً للدماء . [1]

يقول خالد محيي الدين : " نجح نجيب في الاتصال بعبد الحكيم عامر ليبلغه بما حصل عليه من معلومات ، وكان نجيب صاحب فكرة الإسراع باعتقال القادة المجتمعين بكبري القبة أثناء خروجهم لشل سيطرتهم وإفشال أية خطة للتحرك المعاكس . " [2]

كانت ساعة الصفر لبدء التحرك الساعة الثانية عشرة ليلة ٢٣ يوليو وحدث خطأ بسيط ولكنه كان عظيم الأثر.

تصوَّر البكباشي يوسف صديق ساعة الصفر هي الحادية عشرة مساء وليست منتصف الليل . فحرَّك قواته واستطاع أن يستولي على مركز قيادة الجيش وينقذ الانقلاب من الفشل ، وينقذ الضباط الأحرار من المحاكمة العسكريَّة.

وهكذا سقطت رئاسة الجيش قبل أن تصدر قراراً باعتقال الضباط الأحرار وإجهاض انقلابهم .

وفي الوقت الذي كان يوسف صديق يستولي على رئاسة الجيش كان بعض كبار القادة قد أخذ تعليمات من حسين فريد للسيطرة على القوات وإحباط أي انقلاب عسكري مزمع قيامه ولكن تمكَّنت قوات الضبَّاط الأحرار من القبض على هؤلاء القادة واعتقالهم .

---

(1) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ج١ ص ١٩٧.
(2) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ١٤٥.

بعد وصول محمد نجيب إلى مركز قيادته اكتملت مظاهر حركة الضباط الأحرار ، وبعد احتلال الوحدات مراكزها التي تحاصر بها المنطقة العسكريَّة وتعزلها تماماً عن القاهرة ، والسيطرة على الإذاعة حققت الخطة أهدافها في القاهرة .

بدأت القيادة العامة تتصل بالمناطق الخارجية في القنال والعريش لإبلاغ الضباط بانتصار الحركة ، ولم تكن التعليمات للمناطق الخارجيَّة تقضي بأكثر من محاولة عزل القيادات الكبيرة ، والسيطرة على الوحدات دون تحريكها ..

وكان الفصل في تحديد الموقف هو البيان الأول للحركة الذي أذيع على الشعب باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة وقرأه بصوته البكباشي أنور السادات . [1]

عندما حضر محمد نجيب إلى رئاسة الجيش قبل فجر ١٩٥٢ لم تكن حركة الجيش قد تمَّ لها السيطرة بعد على الأغلبيَّة العظمى من وحدات الجيش ، فقد كانت هناك قوات كبيرة في قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد ، وكانت قوات الفرقة الأولى مشاة في سيناء لا تدري شيئاً بعد عن هذه الحركة . أما قوَّات الإسكندرية فلم تكن قد سمعت بالمرة أية أنباء عن هذه الحركة ، وقد ثبت أنها لم تعلم بها إلا من البيان الأول ، وقد ثبت أن البيان الأول للحركة الذي صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الإذاعة كان هو العامل الحاسم في انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة في الحركة إلى القوات الثائرة .

إن مجرد إذاعة البيان الأول باسم محمد نجيب في السابعة والنصف صباحاً من دار الإذاعة معناه أن الرجل قد حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيّاً أمام حكم التاريخ ، وجنائيّاً أمام الملك وحكومته ، وأصبح هو الرمز المجسِّد لها.

ويلاحظ أن البيان الأول لم يحمل صيغة انقلاب أو تغيير نظام حكم إنما مرتبطة بتحسين أحوال الجيش من الخونة والمفسدين الذين تسببوا في هزيمة حرب فلسطين

([1]) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ج١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧.

كما أنه يُطَمْئن الشعب أن الجيش سيعمل لصالح الوطن في ظل الدستور، ويُطَمْئن الأجانب على مصالحهم وأموالهم .

وإلى هذه اللحظة لم يكن لدى الحركة – كما كان يطلق عليها حينئذ – خطط لطرد الملك ، وتحويل المَلَكيَّة إلى جمهوريَّة .

يقول حسنين هيكل : " اللي كان موجود في ذهن كل الضباط في ذلك الوقت قاصر على إصلاح الجيش من الفساد الذي استشرى فيه والضعف الذي سرى في أوصاله وتبدى في حرب فلسطين إلى جنب ما قيل عن صفقات السلاح والفساد اللي حصل فيها وما أدى إليه هذا الفساد من تأثير على القدرة القتالية للقوات " [1]

ما كادت جموع الشعب تسمع البيان الأول لقادة الانقلاب حتى غمرتهم الفرحة فقد كانت أحوال البلاد متردية وكانت صدور الناس تنطوي على خليط من القهر والظلم والغضب المكتوم والرغبة في التغيير لذا غمرتهم فرحة مظلوم نصره الله تعالى بعد حين.

وفي الساعة التاسعة صباحاً خرج من مبنى رئاسة الجيش اللواء محمد نجيب في عربة مكشوفة ، وعندما اخترق الموكب شوارع وسط العاصمة قابلته الجماهير المحتشدة بالتصفيق والهتاف ، وتحوَّل انقلاب الضباط الأحرار إلى ثورة شعبيَّة.

والسر وراء النجاح الشعبي الجارف بالإضافة إلى وجود محمد نجيب على رأس الثورة هو أن الثورة رفعت الشعارات التي كان الناس ينادون بها وهي "الدستور .. الحريَّة .. جلاء الإنجليز عن مصر والسودان " .

ولما اطمأنَّ قادة الثورة على التأييد الشعبي الجارف عُقِد اجتماع بمقر كوبري القبة برئاسة اللواء محمد نجيب وحضور معظم قادة الثورة وتقرر في هذا الاجتماع عزل الملك فاروق .

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت بتاريخ ٢٠٠٦/٢/٢.

يقول زكريا محيي الدين : " كانت مطالبنا قليلة ولكن موافقة الملك فاروق على كل شيء أغرتنا بمزيد من المطالب حتى وصلنا إلى قرار إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية وترحيل الملك خارج البلاد . " [1]

الفرق بين فاروق ومبارك ومرسي في ترك السلطة

ذهب على ماهر بالإنذار إلى الملك فاروق ، وفي أثناء حديث على ماهر مع الملك فاروق قال فاروق لعلى ماهر إنه ليس جباناً وفي وسعه أن يقاوم وأن لديه من القوات الموالية أكثر مما لدى الضباط المتمردين ولكن على ماهر قاطعه قائلاً بأنه لا يرضيه أن يعرِّض بلاده لحرب أهليَّة لا يعلم إلا الله ماذا ستجر على الوطن من ويلات ، وقَبِل الملك التنازل ." [٢]

وبرغم فساد حكم فاروق لكنه تمَّ في عهده وعهد أبيه نهضة علميَّة وثقافيَّة كبيرة ، وعندما قامت الثورة وطُلِبَ منه الرحيل رحل حفاظاً على مصر من حرب أهليَّة ، ونفس الشيء يقال عن مبارك فبرغم فساد حكمه في السنوات العشر الأخيرة إلا أنه بعد قيام ثورة ٢٥ يناير وتأكُّده من تأييد الناس لها تنحَّى عن الحكم حفاظاً على مصر من حرب أهليَّة ، الشيءَ الذي لم يفعله محمد مرسي فبرغم فشل حكمه الذريع في السنة التي حكم فيها الإخوان مصر إلا أنه رفض التنازل عن الحكم أو حتى إجراء انتخابات رئاسيَّة مبكرة أو على الأقل إجراء استفتاء على بقائه في الحكم ، وتمسَّك بالسلطة حتى أزاحته ثورة ٣٠ يونيه هو وجماعته ومع ذلك ظلَّت الجماعة متمسِّكة بالسلطة طامعة فيها مقاتلة دونها بكل سلاح ، ودخلت في صراع دامٍ مع الشرطة والجيش سالت فيه كثير من الدماء .

غادر فاروق البلاد يوم ٢٦ يوليو سنة ٥٢ وبعد يومين من رحيله عن مصر أعلن إيدن في وزارة تشرشل أن الحكومة البريطانية أبدت عدم رغبتها في التدخُّل في شئون مصر.[٣]

---

(1) من لقاء فاروق جويدة بزكريا محيي الدين " من يكتب تاريخ الثورة ؟ " دار غريب ص ٤٨.
(2) صلاح منتصر " من عرابي إلى جمال عبد الناصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص : ٨٤.
(3) طارق حبيب ص : ١٠٥.

إلى هذا الحد فإن الضباط الأحرار يؤدُّون عملاً عظيماً لخدمة الوطن شارك في هذا الدور خَلْقٌ كثيرون من ضباط الجيش وبعض المدنيين – مثل على ماهر ، السنهوري وسليمان حافظ وغيرهم .

هذا رد على من ينسب لعبد الناصر دور البطولة المطلقة في قيام الثورة ونجاحها أما بقية الضباط الأحرار فلم يكن دورهم يزيد عن دور الكومبارس الصامت !!

كان من أهم أسباب نجاح ثورة يوليو، أنها جاءت لتحقق رغبة جموع الشعب المصري في التخلص من الظلم والإقطاع والاستعمار، والعديد من المظاهر السلبيَّة التي ترتَّبت على فساد الحكم الملكي. ففي أواخر العهد الملكي، ساءت حالة البلاد واستشرى الفساد والمحسوبيَّة والتسيب الشديد، وأصبح التخلص من الملك وحاشيته مطلباً شعبيّاً ضروريّاً لأي إصلاح .

وجاءت الظروف الدوليَّة المواتية لتوفِّر مناخاً مناسباً قلَّل من حدَّة المقاومة الدوليَّة لنجاح الثورة، فقد خرجت الإمبراطوريات الاستعماريَّة من الحرب العالميَّة الثانية مُنْهَكَة القوى وغير قادرة على السيطرة على المستعمرات مترامية الأطراف، وبرزت الولايات المتحدة كقوَّة عظمى، تقود وحدها المعسكر الغربي، ويعتمد حلفاؤها عليها في توفير الدعم المالي اللازم لإعادة إعمار اقتصادهم المنهار .

وتاريخيّاً، لم يكن لأمريكا أطماع استعماريَّة مثل حلفائها، بل كان تدخلها في شئون الدول الأخرى مستتراً وبصورة أساسيَّة مرتبطاً بمصالحها ومصالح مؤسساتها. وبرز الاتحاد السوفييتي باعتباره القوَّة العظمى الأخرى في العالم، وكان الاتزان بين هاتين القوتين وخوف كل منهما من الأخرى، عامل استقرار يُحَجِّمُهما معاً ويحدُّ من أطماعهما الإقليميَّة. [١]

ثورة يوليو وحكم العسكر

هناك أخطاء كثيرة شاعت عن ثورة يوليو ، منها أن عبد الناصر هو صاحب الثورة ؛ فهو الذي أنشأ وحده تنظيم الضباط الأحرار وجنَّد كلَّ أعضائه ، وكل ما قام به التنظيم من أعمال كانت بأمر من عبد الناصر وتحت إشرافه ، فما الضباط الأحرار

([1]) " ناصر " شركة الأفق للبرمجيات التفاعلية ١٩٩٩ تصحيح ومراجعة تاريخية أ.د. رءوف عباس حامد.

إلا جنود في كتيبة قائدها ورئيس أركانها جمال عبد الناصر ، وجملة القول أن ثورة يوليو هي ثورة عبد الناصر .

والحقيقة غير ذلك تماماً ذكرنا جانباً منها عند حديثنا عن عوامل نجاح تنظيم الضباط الأحرار ، وقيام ثورة يوليو . (١)

الخطأ الشائع الثاني هو أن كلَّ إنجازات ثورة يوليو تنسب جميعها لجمال عبد الناصر بداية من قيامها وحتى انتصار السادس من أكتوبر ١٩٧٣(٢) رغم أن عبد الناصر لم ينفرد بالحكم إلا بعد أزمة مارس ٥٤ حتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ ، أما قبل مارس ٥٤ فقد كان الحاكم الفعلي هو مجلس قيادة الثورة برئاسة محمد نجيب وكان القرار لا ينفَّذ إلا إذا حصل على موافقة الأغلبيَّة .

كيف يتخذ القرار في مجلس قيادة الثورة ؟

منذ نشأة تنظيم الضباط الأحرار وتنص لائحته الخاصة على أن الأمر لا يُقرُّ إلا إذا وافقت عليه أغلبيَّة الأعضاء حتى ولم يكن بينهم رئيس اللجنة التأسيسيَّة – جمال عبد الناصر – واستمرَّ هذا الأمر معمولاً به بعد نجاح الثورة وتشكيل مجلس قيادة الثورة وتولي محمد نجيب رئاسته ، وهذا سر نجاح الثورة ، ومجلس قيادتها ؛ حتى لا يستبد أحدٌ بالحكم ولقد جاء في بيان مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٤ – : " لم يقبل المجلس مطلقاً على أن يحيد عن لائحته التي وضعت قبل الثورة بسنين طويلة إذ تقضي بمساواة كافة الأعضاء بما فيهم الرئيس في السلطة ، فقط إذا تساوت

---

(1) يردد الناصريون دائماً أن عبد الناصر هو الذي أعدَّ خطة حرب أكتوبر ٧٣ (الخطة ٢٠٠) ودرَّب القوات المسلحة عليها ، وكان سينفذها فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار المؤقت في ٧ نوفمبر ٧٠ ولكن القدر لم يمهله فتوفي قبل تحرير كل الأراضي العربية التي احتلت في يونيو ٦٧ وعندما تولى السادات الحكم أرجأ تنفيذ الخطة إلى أكتوبر ٧٣ وفشل في تنفيذها كما وضعها عبد الناصر واكتفى بحرب تحريك بدلاً من حرب التحرير ، وهذا الكلام كله عار عن الصحة ؛ فالحقيقة كما ذكرها قادة أكتوبر العظام أن الخطة ٢٠٠ التي تركها عبد الناصر خطة دفاعيَّة وليست هجوميَّة ، وأن خطة حرب أكتوبر (بدر) قد وضعها رئيس أركان القوات المسلحة البطل الراحل سعد الدين الشاذلي مع المشير أحمد إسماعيل وزير الحربيَّة وقد انتهت مناقشتها في سبتمبر ١٩٧٣ ، لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع الرجوع إلى كتابنا " نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " مكتبة غريب .

(2) لمزيد من التفاصيل حول تنظيم الضباط الأحرار وقيام ثورة يوليو الرجوع لكتابنا " آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة " دار غريب .

الأصوات عند أخذها بين فريقين في المجلس فترجح الكفة التي يقف الرئيس بجانبها " [1]

وعليه فإن معظم ما تمَّ من إنجازات حقيقيَّة ، وليست شعارات أو إخفاقات رُوِّجت على أنها إنجازات ، قد تمَّت في العامين الأولين من قيام الثورة (يوليو ٥٢ – أبريل ٥٤) كما سنرى ، وسوف نذكر أولاً لماذا يحب كثير من الناس الآن جمال عبد الناصر ، وما الإنجازات التي تنسب له ثمَّ نبيِّن نصيب مجلس قيادة الثورة برئاسة محمد نجيب من هذه الإنجازات ، ثمَّ نذكر رأي بعض كبار المفكرين فيما قام به عبد الناصر من إنجازات ، ونتائج هذه الإنجازات على نهضة مصر ، وهل يصح أن تطبق الآن أم أن الزمن قد تجاوزها.

ولقد ترددت كثيراً في تقييم التجربة الناصريَّة في هذا الكتاب ، وقد بسطت الحديث عنها في سلسلة كتب بلغت ستة كتب بعنوان " دروس سياسيَّة من التجربة الناصريَّة" ، خاصة وأنَّ هذا الكتاب يتحدَّث عن حضارات مصر ونهضاتها ، وأن النهضة المصريَّة قد توقَّفت بانفراد عبد الناصر بحكم مصر ، لكن نظراً لإيمان كثير من الناس : نخبة ، وعامة بالتجربة الناصريَّة ورغبتهم في إعادتها بعد ثورة ٢٥ يناير ، وهم لا يدرون أن ثورة يناير ما قامت إلا لتنهي حكم العسكر المستبد الذي جاءت به ثورة يوليو ولتؤسِّس نظاماً ديمقراطيّاً يحقِّق نهضة حقيقيَّة تستعيد بها مصر مكانتها التي يستحقها شعبها العظيم صاحب أقدم وأعظم حضارة في التاريخ.

وبعد أن هممت بذكر ملخَّص لكيفيِّة وصول عبد الناصر للحكم ، ونظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وجدت أن الموضوع سيطول ويخرج عن موضوع الكتاب فاكتفيت بمناقشة ما جاء في المقررات المدرسيَّة في مادة التاريخ التي كتبت في الحقبة الناصريَّة ، وبذكر شهادات بعض كبار الكتاب في نظام حكم عبد الناصر وتقييم تجربته .

وهدفي في هذا الكتاب ليس محاكمة أشخاص أفضوا إلى ما قدموا والله تعالى حسيبهم ، إنما الهدف استخلاص العبرة التي تفيد في فهم الحاضر وتعين على اتخاذ

([1]) عبد الرحمن الرافعي " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ص ١٣٨.

القرار الصحيح في المستقبل وخاصة أننا في مرحلة انتقاليَّة وعلى مفترق طرق أدعو الله أن يرشد شعب مصر فيها سواء السبيل وأن يجنبنا الزلل وسوء المآل .

ثورة يوليو والنهضة

بنجاح ثورة يوليو انتهت الحقبة الليبراليَّة والنهضة الثانية في العصر الحديث وبدأت مرحلة الديكتاتوريَّة العسكريَّة التي فاقت حقبة محمد علي في استبدادها وحُرِمَت من إنجازيها : تكوين جيش قوي ، ونهضة علميَّة وثقافيَّة بل قضت ثورة يوليو على هذين الإنجازين .

فإذا كان محمد عليّ قد أقام نظاماً ديكتاتوريّاً مستبدّاً استأثر فيه بالسلطات الثلاث: التشريعيَّة ، والتنفيذيَّة ، والقضائيَّة ، وأقصى فيه كلَّ القوى الوطنيَّة التي جاءت به إلى الحكم ، وقضى على دور الأزهر الشريف وعلمائه ، وأقام نظاماً اقتصاديّاً احتكر فيه كل أنشطة الاقتصاد : الزراعيَّة ، والصناعيَّة ، والتجاريَّة ؛ فتحكَّم بذلك في رقاب الناس وأرزاقها ، كما بيَّنا ، ولكن يحسب له أنه بنى جيشاً قويّاً ، وأقام نهضة علميَّة وثقافيَّة حديثة .

أما ثورة يوليو وإن خلَّصت مصر من الاحتلال الإنجليزي البغيض ، والحكم الملكي الفاسد وقامت ببعض الإصلاحات وحقَّقت للشعب بعض المطالب في العامين الأولين من قيامها إبان حكم مجلس قيادة الثورة ، لكن ما إن وصل جمال عبد الناصر للحكم واستبد به وحده حتى أقام نظاماً فاشستيّاً احتكر السلطات الثلاث وكافة الأنشطة الاقتصاديَّة ووسائل الإعلام والثقافة واستعبد البلاد والعباد جميعاً ، وقضى على جيش مصر العظيم ، وأفسد نهضة مصر الناشئة، وأسَّس نظاماً عسكريّاً استمر نحو ستين عاماً تردَّت فيها الأحوال في شتَّى المجالات ، وأصبحت مصر أم الدنيا ومعلِّمة الأمم الحضارة عالةً على الغرب والشرق علميّاً واقتصاديّاً حتى قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي قضت على الحكم العسكري مُحْتَكِر السلطة والاقتصاد والإعلام والتعليم والثقافة ومازالت مصر تجاهد في سبيل إقامة نظام ديمقراطي نهضوي .

أكبر جرائم حسني مبارك

إن من أكبر الجرائم التي ارتكبها حسني مبارك في حقِّ مصر وشعبها هو عدم الإفراج عن وثائق ثورة ٢٣ يوليو مما فتح الباب لأعوان الطغاة والمنتفعين والمغرضين

وأصحاب الهوى والمصالح الخاصة أن يزوِّروا التاريخ ويزيِّفوا الحقائق ويروِّجوا الشائعات .

وكان السادات قد شكَّل لجنة " إعادة كتابة تاريخ مصر " في يناير ١٩٧٦ ووضع تحت أيديها جميع وثائق ثورة ٢٣ يوليو وشهادات من بقي حيّاً من صناعها وشهودها ، وعهد برئاستها إلى نائبه حسنى مبارك، ولكن حسني مبارك بعد ثلاث جلسات فقط ترك رئاسة اللجنة وعهد بها إلى د. صبحي عبد الحكيم، أستاذ الجغرافيا، رئيس مجلس الشورى لاحقاً .

وعندما انتهت اللجنة من أعمالها وقبل إعلان نتائج ما توصَّلت إليه اغتيل السادات وتولى مبارك الرئاسة بعده ليدفن عمل هذه اللجنة ، ويئد جميع الحقائق التي توصَّلت إليها ، بل أوقف الحملة التي استهدفت تصحيح ما شاب تاريخ ثورة ٢٣ يوليو من تزييف وتضليل في الإعلام المصري . [١]

ولقد طالب المؤرخ الطيار فكرى الجندي، أحد الأحياء القلائل من أعضاء لجنة المجلس الأعلى للقوات المسلحة بسرعة الإفراج عن كل أعمال لجنة إعادة كتابة التاريخ، التي تم دفنها منذ انتهائها من أعمالها قبيل عهد الرئيس السابق، حسنى مبارك، مضيفاً : من العار أن نضع القيود غير المفهومة أمام إتاحة التاريخ والتعلم منه . " [2]

دراسة حقائق التاريخ أوَّل خطوات النهضة

وأُذَكِّر القارئ العزيز أن الأمم التي تقدَّمت ونهضت ناقشت تاريخها مناقشة علميَّة، وبأكبر قدر من الحياديَّة ، وجنَّبت تأثير العواطف الهوجاء والثارات الشخصيَّة ، والمصالح الذاتيَّة في الحكم على الأحداث والأشخاص ، حتى تأخذ من ماضيها لحاضرها ومستقبلها ، ومن أخطائها ما يجنبها الوقوع فيها ثانية .

---

(1) صرَّح بذلك حمدي الكنيسي رئيس الإذاعة الأسبق في ندوة د. سيد كريم في أول التسعينات وكان المؤلف أحد المشاركين فيها .

(2) من حوار الطيار فكرى الجندي مع جريدة المصري اليوم ونشرته المصري اليوم بتاريخ الأحد ٢٠ نوفمبر ٢٠١١ .

كما أنهم لم ينظروا إلى زعمائهم نظرة تقديس وتأليه بل نظروا إليهم نظرة تمحيص وتقييم، فحكامهم بشر يخطئون ويصيبون عكس نظرة الشرقيين الذين يتفانون في زعمائهم أحياء ويقدسونهم أموات .

يقول د. حمادة حسنى (أستاذ التاريخ الحديث) : " الأساطير أكثر تشويقاً وأكثر ملائمة للعواطف والميول السياسيَّة أمَّا الحقائق التاريخيَّة فهي مزعجة بطبيعتها وإذا ما عرف المصريون تاريخهم من أمثال هؤلاء وبهذه الصورة المشوَّهة القبيحة فرحمة الله على ماضينا .

فإذا كان من حقِّ السياسيين الدفاع عن نُظُمِهم السياسيَّة بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فإنَّه من حقِّ المؤرِّخين الدفاع عن تاريخهم الوطني بالوسيلة المشروعة الوحيدة وهى الحقيقة التاريخيَّة .

فالصحفي يقبل جزء من الحقيقة والسياسي يقبل نصف الحقيقة والباحث لا ترضية إلا الحقيقة كاملة فالمؤرِّخ والقاضي بحكم تكوينهما المهني منحازان لجانب الديمقراطيَّة ضد الدكتاتوريَّة والعدل ضد الظلم والتقدم ضد التخلف . "

ويقول فاروق جويدة : " ينبغي أن نتعامل مع تاريخ ثورة يوليو على أساس أنه تاريخ مصر وليس تاريخ عبد الناصر أو السادات أو محمد نجيب أو سعد زغلول أو النحاس . إن تنقية الكتابة التاريخيَّة من الأهواء والأغراض والمصالح هي نقطة البداية ؛ لأن المؤرخ راهب يجب أن يتخلَّص من كلِّ غبار النزوات والشطط والرؤى الضيقة، ويهب نفسه لقيمة اسمها الحقيقة وهي أساس الكتابة التاريخيَّة." [١]

ومقياس شخصية الوطني المخلص لا تتَّضح تمام الوضوح إلا إذا حدَّد المعيار السليم لقوة ضبط النفس في تطبيق المبادئ والأهداف والمُثل والحرص على تحقيق مصلحة الأمَّة ، وليس الانتصار لشخص على حساب مصلحة الوطن ، وأن التقيُّد بالمُثُل يعني ضمان عدم تأثر المبادئ والأهداف بشخصيات الزعماء، أو بالهوى، أو بالمصلحة الشخصيَّة.

([1]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٧٥ .

إن الضعيف الجبان دائماً يحلم بزعيم قوي شجاع يستر وراءه ضعفه ، ويجبر به كسره ، وفي أوقات الهزائم والمحن يلتف الناس خلف كلِّ ثائر بطلاً كان أو ناعقاً ، ويستحضرون صور زعمائهم الذين قالوا " لا " في وجه أعدائهم ، وبدلاً من أن ينتصروا للمبادئ ينتصرون للأشخاص الذين عبثوا بها !!

هذه هي عبادة الأشخاص التي تسود المجتمعات المتخلِّفة ، فهي تؤمن ببعض الزعماء إيماناً مطلقاً ، وتجعل من شعاراتهم قرآناً صالحاً لكلِّ زمان ومكان !

والشعوب المتحضِّرة استطاعت أن تستبدل بعبادة الأشخاص تقديس المبادئ، والكفر بالزعماء الذين أهدروها .

وأيقنَتْ أن لكلِّ زمان رجاله ، ولكلِّ مرحلة قراراتها فما كان مطلوباً في وقت النضال من أجل الحريَّة – ربما – صار مرفوضاً في المراحل التالية التي تتطلَّب مراجعة النفس ، وإعادة تقييم الماضي بشخوصه وأحداثه.

والشعب المصري وقد استردَّ حريته بعد ثورة ٢٥ يناير ، وثورة التصحيح ٣٠ يوليه أصبح قادراً على التفرقة بين الزعيم المتجرِّد المُخْلِص وبين الزعيم الذي يخفي وراء المبادئ شهوة السلطان والطموح الذي لا حدَّ له في السيطرة والتملك .

إن شعب مصر بعد أن ثار في وجه حكامه الطغاة يريد حكَّاماً تقاوم الاتجاه الغريزي للاستبداد لكي تناصر مصلحة الأمَّة ، وتصارع الشهوات الخاصَّة لتخضعها لمصلحة الشعب ، وتكافح الانحراف عن هذا النهج ، وتعمل على القضاء على محاباة الحاكم للمصالح الشخصيَّة ، وتصارع استغلال السلطة للمصلحة الشخصيَّة على حساب ثروة الوطن ومستقبله .

كما يجب على القارئ العزيز أن يتحلَّى بفضيلة التدبُّر والتفكُّر فيما يقرأ ، يقول عليّ رضي الله عنه: " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبُّر فيها " [١]

([1]) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء }.

لماذا يحب الناس عبد الناصر ؟!

وقد يسأل سائل لماذا هذا الحبُّ الجارف لجمال عبد الناصر وحقبته ؟ هذا الحب الذي لم يخبُ رغم مرور الزمن .

وكما توقَّع الأستاذ هيكل " فإن عبد الناصر بعيداً أخطر من عبد الناصر قريباً لأنه في غيابه قد تتحوَّل الناصريَّة من شخص إلى فكرة ومن فكرة إلى تنظيم".

ولقد رأينا التنظيمات العربيَّة المسلَّحة : حماس ، وحزب الله ، والحلف الإيراني السوري مِنْ ورائهما تتَّخذ من المبادئ والشعارات التي شاعت عن عبد الناصر نهْجاً لها (١) يظهر هذا في شعاراتهم التي يرفعونها ، أو في ممارساتهم التي يؤدُّونها، مثل شعار اللاءات الثلاثة (لا صلح ، ولا اعتراف ، ولا مفاوضات) مع إسرائيل. وشعار الاعتراف بإسرائيل خيانة ، وإقامة أيَّة علاقة بأمريكا عِمالة، وشعار أن أي تسوية سلمية مع إسرائيل استسلام وانهزاميَّة ، وشعار أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، وأن كل المعاهدات التي وقَّعها الحكام العرب مع إسرائيل مجحفة يجب نقضها والخروج عليها .

لقد استقرَّ في ذهن هذه التنظيمات ، وكثير من عامَّة الناس أن التجربة الناصريَّة حقَّقت للأمَّة العربيَّة كل ما تتمنى دون أن تكبدهم مؤنة التفكير والعمل ، فإذا كانت إسرائيل هي عدوهم الأكبر في العالم ، فإن عبد الناصر كاد أن يرميها في البحر هي ومَن وراءها ، ورفض أية تسوية سلميَّة معها رغم إلحاحها في طلب هذا !

وإذا كانت أمريكا هي العدو اللدود للعرب فإن عبد الناصر هو الذي أذلَّ كبرياءها وحطَّم آمالها ، وقضى على هيمنتها !

وإذا كان العرب آفتهم الكبرى الفرقة والاختلاف فإن عبد الناصر هو الذي استطاع أن يجعل العرب أمَّة واحدة وقوميَّة واحدة تحت زعامته !

---

(1) رغم أنها أحزاب دينية ، والناصرية كانت حركة علمانية فليس للدين فيها علاقة بالمجتمع وقوانينه ونظام حياته ، وإنما هو طقوس تعبدية في المسجد أو في الكنيسة فحسب .

كل هذه الآراء التي شاعت بين الناس جعلت من جمال عبد الناصر رمزاً للمقاومة العربيَّة ضد الهيمنة الأمريكيَّة، وطغيان إسرائيل حليفتها الاستراتيجيَّة، لذا نجد صورة عبد الناصر مع كل عدوان أمريكي أو إسرائيلي على البلاد العربيَّة تُرفع، والحناجر باسمه تهتف : لو كان عبد الناصر حيّاً ما كانت أمريكا لتحتلَّ أفغانستان أو العراق ، وما كان لإسرائيل أن تُبِيد الفلسطينيين ، وتجتاح لبنان وغزة، وتهدد إيران وسورية ، وما كان، وما كان ...

كما أن أيَّ مُقاوِم لإسرائيل يُشَبَّه بعبد الناصر، وأي عدو للإمبرياليَّة يقرن به وهناك حزبان ناصريان ،على الأقلِّ ،في مصر: الحزب الناصري ، وحزب الكرامة، بالإضافة لحزب التجمع الذي يعتز بالتجربة الناصريَّة . كما أن بعض مرشحي الرئاسة السابقة ناصريون وبعضهم ذوو ميول ناصرية .

والحقيقة أن المفهوم الشائع عن علاقة عبد الناصر بالغرب – خاصة أمريكا وإسرائيل – ليس فقط مخالفاً للحقيقة والتاريخ وإساءة للتجربة الناصريَّة بإظهار عبد الناصر في شكل الطاغية الغاشم أو هتلر النازي – كما يصفه أعداؤه من الغرب – إنما أيضاً فيه إساءة لفهم حقيقة الصراع العربيِّ / الغربيِّ مما يؤثِّر سلباً على حسن اختيار السياسة الرشيدة التي يجب أن يتبعها العرب ليحقِّقوا بها أهدافهم بعد سلسلة طويلة من التخبُّط الفكري ، والتمزُّق النفسي، والتخلُّف الحضاري ، والهزائم العسكريَّة.

ولو أن التجربة الناصريَّة بصفة خاصة وتاريخ الصراع العربيِّ / الغربيِّ بصفة عامة قد دُرِست دراسةً سياسيَّةً موضوعيَّة ما تكررت أخطاء الماضي وما ظهرت تلك الزعامات العربيَّة التي تسبَّبت فيما نحن فيه من ذلٍّ وهوان ، وفرقة وانقسام .

والحقيقة إن السرَّ وراء حبِّ الناس عبد الناصر يرجع إلى غيبة الحقائق وعدم الإفراج عن وثائق ثورة يوليو ، وكتائب الإعلام : المسموعة والمقروءة والمرئيَّة التي كانت مجنَّدة للدعاية للزعيم وأعماله ، وثلَّة الفنانين : مغنون وممثلون ورسَّامون ونحَّاتون ...الذين سخَّروا إبداعهم لإظهار بطولة الزعيم .

لقد فرض النظام الناصري العزلة الجبريَّة على المصريين وعقَّم مصر من أيَّة آراء معارضة لآراء الزعيم فعاشت مصر في الكهف الناصري الذي حجب عنها كلَّ نقد داخلي أو وسيلة إعلام خارجيَّة كما عاشت مصر في ظلِّ الاحتلال العثمانيين فمن

عاش في الحقبة الناصريَّة حُكِمَ عليه ، طوعاً أو كرهاً ، ألا يسمع ولا يرى ولا يقرأ إلا تسبيحاً وعظيماً للزعيم وإنجازاته وتخويناً وتشهيراً وتنكيلاً بمعارضيه .

وعندما تظهر الوثائق وتعرف الحقائق وتدرس المواقف حتماً سيتغير موقف الناس من عبد الناصر وعصره .

مناقشة مقررات التاريخ المدرسيَّة في الحقبة الناصريَّة

وجاءت المناهج المدرسيَّة لتغرس في نفوس تلاميذ المدارس والجامعات أن جمال عبد الناصر هو أوَّل حاكم مصري وطني حكم مصر منذ عهد الفراعنة الأقدمين وأنه حقَّق لمصر ما لم يحقِّقه لها كلُّ من سبقه من حكام ، لقد دأبت المناهج المدرسيَّة وخاصة مادة التاريخ في الحقبة الناصرية وما بعدها على تعظيم كل ما قام عبد الناصر من أعمال وما اتخذ من قرارات وتبرير كل ما وقع فيه من أخطاء وما سبَّبه من كوارث ونسبة كلِّ إخفاقاته إلى نظريَّة المؤامرة الدوليَّة عليه رغم أنه كان حليفاً استراتيجيّاً لأمريكا منذ قيام الثورة حتى عام ١٩٦٥ وعندما انقلب على أمريكا وانحاز بالكلِّية إلى الاتحاد السوفيتي انقلبت عليه أمريكا وكانت هزيمة يونيو ٦٧ . (١)

ودونك بعض ما جاء في المقررات المدرسيَّة التي درسها الطلاب في الحقبة الناصريَّة .

لقد وضع طه حسين وآخرون كتاب قومي في عام ١٩٥٥ كان خاصّاً للثانويَّة العامَّة ، وفي هذا الكتاب جاء الكلام عن ثورة يوليو من كتاب فلسفة الثورة الذي وضعه جمال عبد الناصر . (٢)

ولم تكتف المقررات المدرسيَّة بتدريس كتاب الزعيم " فلسفة الثورة " الذي صاغه لجمال عبد الناصر مستشاره الصحفي حسنين هيكل بل راحت بمقدار ما تمجِّد فيه وفي عصره تحقِّر من الحقبة الليبراليَّة التي نشأ الزعيم في ظلِّها وتعلَّم بالمجان في مدارسها ، وتفتَّق وعيه السياسي على كتابات مفكريها وأدبائها ، ووصل ، وهو ابن

---

(1) راجع كتابنا " أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " دار غريب للطباعة والنشر .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٢ .

ساعي البريد ، إلى وظيفة مدرِّس في الكليَّة الحربيَّة برتبة بكباشي (مقدم) أركان حرب أثناءها .

يقول د. زكي البحيري : " وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أخذ وضع المقررات التاريخيَّة المعاجلة لمصر الحديثة طابعاً اتسم أحياناً بالمبالغة في التناول التاريخي كرد فعل لطول فترة القهر على مدى عصور تاريخيَّة ، ولقد تعرَّض تاريخ مصر الحديث لحملة من سياط التعبيرات المطلقة السهلة تدفع الماضي إجمالاً وتظن أنها بذلك ترضي الحاضر ، ناسية أن الحاضر مهما كان اختلافه عن الماضي ، ولد في أحشائه وبدأ فيه وبالتالي فإنه ليس هناك ذلك الانغلاق الكامل بين عهد بائد وعهد جديد حل محله ، ونتيجة لذلك ساد تصور سطحي خاطئ تاريخ مصر الحديث لم يبدأ إلا بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وهذا إهدار لجزء هام من تاريخ مصر .

إن الرغبة في إبراز الدور الوطني والقومي لثورة ٢٣ يوليو وللأحداث التي تلتها لا تعني على الإطلاق انتقاء أخطاء الماضي واعتبارها تاريخاً له وانتقاء مزايا الحاضر واعتبارها هي حقيقته ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننفي أن المعالجات التاريخيَّة بعد ١٩٥٢ قد كشفت النقاب عن كثير من حقائق تاريخ مصر حديثاً ومعاصراً .. [١]

لقد أبدى كتاب " تاريخ الإقليم المصري الحديث " للصف الرابع الإعدادي لمؤلفه محمد عبد الحميد سنة ١٩٥٩ إعجاباً بالثورة وإنجازاتها وكفاحها الوطني فذكر المقرر أسباب قيام الثورة والظروف الدوليَّة المحيطة بها في ٣٣ صفحة ثم تطرَّق إلى أوضاع مصر قبل ١٩٥٢ فأشار إلى فشل المفاوضات المصريَّة البريطانيَّة واستمرار الملكيَّة الفاسدة ، وعدم تمكُّن الأحزاب القائمة ، وأشكال الممارسة النيابيَّة، والحكومات الناتجة عنها من تحقيق الآمال الوطنيَّة فجاء في المقرر المدرسي أن " الأصل في ظهور الأحزاب قيامها على مبادئ خاصة للوصول إلى أهداف واضحة في الإصلاح الداخلي والسياسة العامَّة ، ووضع برامج مفصَّلة لذلك، ولكن للأسف تفرَّغت معظم الأحزاب المنحلَّة عن الوفد المصري الذي قام في أوَّل أمره يمثِّل الشعب كله ، ويدافع

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٥٠ .

عن مصالحه واستقلاله ، وحدث هذا أثر خلافات شخصيَّة ، وأصبح الهدف الأوَّل لكل حزب الوصول إلى كراسي الحكم ، فأعماها هذا عن القيام بواجبها الأصلي فجاملت الاستعمار وتملَّقت القصر ، وأصبحت بمضي الزمن خاضعة لرغباته ومحقِّقة لنزواته ، ولو كان ضد الدستور أو على حساب الشعب . " [١]

وعن نفس القضيَّة جاء في كتاب التاريخ للصف السادس الابتدائي لسنة ١٩٦٠ مقولة نصها " تخلَّصت ثورة الضباط الأحرار من الملك الطاغية " والعبارة تدين بشكل قطعي النظام الملكي قبل الثورة .

ورصد نفس المقرر أهداف الثورة وهي :

١- التخلُّص من الاستعمار وأعوانه .

٢- القضاء على الإقطاع .

٣- التخلُّص من سيطرة أصحاب رأس المال على الحكم .

٤- إقامة عدالة اجتماعيَّة .

٥- إنشاء جيش وطني قوي سليم .

٦- إقامة حياة ديمقراطيَّة سليمة .

وينتقل كتاب تاريخ الصف السادس لسنة ١٩٦٠ لمعالجة التطورات الاقتصاديَّة فقد تمَّ إعلان قانون الإصلاح الزراعي في الملكيات الكبيرة والظلم الاجتماعي وسيطرة الأسرة المالكة ومن والاها ، ويسجَّل المقرَّر أنه تمَّ نزع ملكيَّة آلاف الأفدنة من الأسرة المالكة بعد تحديد الحد الأقصى لملكيَّة الفرد بـ ٢٠٠ فدان ، و ٣٠٠ فدان للأسرة كاملة ، ولقد أعادت الحكومة توزيع الأراضي المستولى عليها على صغار المزارعين فانتفع من هذا الفانون نحو ١٧٠.٠٠٠ أسرة فلاحيَّة مما ساعد على رفع مستوى المزارعين ، وتطرَّق

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٣ ، ١٧٤.

الكتاب في تحليله إلى ما أنجزته الثورة من مشروعات ساعدت على زيادة الرقعة الزراعيَّة . [١]

ولعلَّ واحدة من أهم الإنجازات التي تنسب لعبد الناصر توجهه لإرساء العدالة الاجتماعيَّة وذلك باتخاذ خطوات ذات طابع اشتراكي ، ولقد انعكس ذلك في مقررات تاريخ مصر في المدارس المصريَّة ، فكتاب الشهادة الإعداديَّة لسنة ١٩٧٠ أشار إلى القوانين الصادرة في مصر التي كانت تهدف إلى "تحقيق العدالة الاجتماعيَّة ، والتخلُّص من النظام الإقطاعي بإصدار قوانين الإصلاح الزراعي ثم قوانين يوليو الاشتراكيَّة عام ١٩٦١ بتحديد الملكيَّة بـ ١٠٠ فدان وتأميم كبرى الشركات والمؤسسات وتحويلها إلى قطاع عام ، تلك الشركات التي كانت تمثل استغلالاً واستنزافاً لموارد الشعب المصري " [٢]

ولم تجبنا المقررات المدرسيَّة الناصريَّة عن السبب وراء الهجرة الداخليَّة التي قام بها الفلاحون إلى العاصمة والمدن الكبرى رغم تملُّكهم لأرض الإقطاعيين ورفع مستوى المزارعين كما يقول المقرر المدرسي .

والحقيقة أن الإصلاح الزراعي ما هو إلا تطبيق لنظام الاحتكار الذي أنشأه محمد على وعمل على هجر الفلاحين أرضهم والفرار إلى الشام ، وكذلك فعل الفلاحون في عصر عبد الناصر هجروا أرضهم وفرَّوا إلى العاصمة والمدن الكبرى بحثاً عن لقمة العيش التي عزَّت عليهم في قراهم بالإضافة إلى استمرار حرمانهم من سائر الخدمات كما سنبيَّن لاحقاً ، ولكن المقرر المدرسي يحاول أن يوحي إلينا بأن الفلاح المصري في ظلِّ الإصلاح الزراعي قد عاش عيشة الفلاح الأمريكي !!

وأشار مقرر الصف السادس الابتدائي لعام ١٩٦٠ إلى ما أنجزته الثورة من التقدم الصناعي ، وكهربة خزان أسوان ، وإنشاء مصنع الحديد والصلب بحلوان ، وإنشاء

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٤، ١٧٥ .
(٢) نفسه ص ١٨٢ .

مصنع السماد ، ومصانع تكرير البترول وأدخلت صناعات جديدة كالورق ، وكاوتش العربات والأدوات الكهربائيَّة . (١)

ونترك للقارئ العزيز مقارنة ما أنجزته الثورة من مشروعات اقتصاديَّة وما تمَّ في الحقبة الليبراليَّة في نفس المجال وأغفلت المقررات المدرسيَّة الناصريَّة ذكره أو حتى التنويه عنه .

وعن الإصلاحات الاجتماعيَّة جاء بنفس المقرر أن الثورة " ألغت الألقاب والرتب المدنيَّة ، حتى تشيع المساواة " وفي التعليم " تمَّ تغيير اسم وزارة المعارف العموميَّة إلى وزارة التربيَّة والتعليم فأصبحت رسالتها تكوين المواطن الصالح " كذلك تمَّ " إنشاء المدارس في مختلف أنحاء الإقليم المصري " (٢)

أما عن إلغاء الألقاب والرتب المدنيَّة وبصرف النظر أن هذا الإلغاء كان مما قامت به وزارة علي ماهر فإن الحقبة الناصريَّة شهدت أسوأ ما عرفته مصر من إساءة لاستخدام السلطة ، وقهر المواطنين من قبل رجال النظام وأهل الثقة الذين حرموا أصحاب الرُّتب المدنيَّة منها وتلقَّبوا هم بها ، أما عن شيوع المساواة بين المواطنين فهذا مما لا ينكره منصف فباستثناء رجال النظام ومن والاهم فإن سائر المواطنين كانوا سواءً في الظلم !! وقد شاعت في هذا العصر مقولة " المساواة في الظلم عدل " على أنها حكمة بليغة وفي الحقيقة أنها دستور الطغاة والمتجبِّرين في الأرض .

أما عن التعليم في العصر الناصري وتغيير اسم وزارة المعارف إلى وزارة التربيَّة والتعليم لتصبح رسالتها تكوين المواطن الصالح فإن مما اتَّفق عليه المفكِّرون والمهتمُّون بالتعليم أن انهيار التعليم في مصر وتردي مستوى المؤسسات التعليميَّة والمتعلِّمين وتراجع مكانة الجامعات والشهادات المصريَّة عالميّاً قد بدأ بعد ثورة يوليو وتولي أحد الضباط الأحرار وزارة التربية والتعليم .

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٦ .
(٢) نفسه ص ١٧٦ .

وعن مساهمات الثورة الأخرى تعرَّض مقرر الشهادة الإعداديَّة للتاريخ الصادر ١٩٥٩ للدور الوطني للثورة ضد الاستعمار ، فتحدَّث عن نجاح الثورة في إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ، وإفشال حلف بغداد ثم يقول : " وبدأت القوى الغربيَّة تحيك الحيل ضد مصر ، وظهر أن هناك خطراً منتظراً وكان يجب إعداد جيش وطني قوي لمواجهة مخاطر الاستعمار والصهيونيَّة وأراد عبد الناصر تزويد الجيش بالسلاح من انجلترا أو الولايات المتحدة فرفضتا إلا إذا قبلنا الدخول في أحلافهما العسكريَّة ، فاتجهت الحكومة إلى الكتلة الشرقيَّة خاصة الاتحاد السوفيتي الذي زوَّد مصر بكلِّ حاجاتها من السلاح " (١)

لقد اعتبر البعض أن ما جاء في المقررات المدرسيَّة عن الفترة المنحصرة بين ١٩٥٢ و ١٩٧٠ خاصة ما يتصل بالصراع ضد الاستعمار كان مبالغاً فيه وحمَّل هؤلاء حكومة الثورة مغبَّة ما وقع من أحداث أضرَّت ببلادنا وخاصة حرب ١٩٥٦ وما تلاها من موقف الغرب المعادي لنا .

في مقابل ذلك يرى الناصريون أن التوجهات المصريَّة خلال هذه الفترة لم تكن عشوائيَّة ولا خاطئة ، وأن حيل السياسة البريطانيَّة والامريكيَّة ضد مصر والأمَّة العربيَّة كانت دائبة في تآمرها خوفاً من أن يقوى العرب أو يتوحَّدوا مما جعل الغرب وإسرائيل في خطر ، لقد أرادوا استخدام بعض الأنظمة العربيَّة الرجعيَّة لضرب الحكومات الثوريَّة لكي تبقى الأمَّة العربيَّة مفككة . (٢)

إن من أوجب واجبات الزعيم الحق نحو شعبه توفير الدفاع عن حدود الوطن من أي عدوان خارجي يريد أن يعتدي على أرضه ، أو يهدِّد أمنه . لذا يجب أن يضع تقوية الجيش : تسليحاً ، وتدريباً ، وقيادةً نصب عينيه .

لكن هذا الواجب كان أبعد الأمور عن تفكير نظام الحكم الناصري إذ كانت مهمَّة القوات المسلحة قاصرة على شيء واحد لا ثاني له وهو حماية النظام الناصري وإن تعرض أمن الوطن للخطر !!

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٧ .
(٢) نفسه ص ١٧٩ .

وكان طبيعيّاً والحالة هذه أن تكون الهزيمة حليف هذا الجيش فلم يحقِّق أيَّ نصر في أيِّ معركة دخلها فقد هزم في حرب ١٩٥٦ ، ولم يستطع أن يحقَّق النصر على العصابات غير النظاميَّة في اليمن ، ولم يحافظ على الوحدة مع سوريا، ولم يصمد لبضع ساعات أمام الجيش الإسرائيلي حيث قُضِيَ عليه تماماً في ١٩٦٧.

إن الدارس لتاريخ حكم عبد الناصر يخرج بنتيجة مفادها أن أرواح جنود القوات المسلحة هي آخر شيء يفكِّر فيه عبد الناصر فمن أجل رفض أمريكا تمويل السد العالي اعتراضاً على سياسته المؤيدة للسوفييت والمعادية لأمريكا أمَّم قناة السويس واندلعت حرب السويس التي راح ضحيتها أكثر من ألف شهيد من القوات المسلَّحة غير شهداء المقاومة الشعبيَّة ، ومن أجل تضميد جراح زعامته الجريحة بانفصال سوريا عن مصر زجَّ بالجيش المصري في الحرب الأهلية في اليمن التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل والتي راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شهيد ، ومن أجل الرد على بعض حكام العرب الذين عيَّروه بمرور السفن الإسرائيلية رافعة أعلامها في المياه الإقليميَّة لمصر وتستُّره خلف القوات الدولية قام بإشعال فتيل حرب ٦٧ بطرد هذه القوات وراح ضحية هذه الحرب ٢٥ ألف شهيد غير احتلال إسرائيل الأرض العربيَّة : سيناء ، الجولان ، غزة ، والضفة الغربيَّة ، ومن أجل إثبات أن ٦٧ لم تكن إلا معركة في حرب عوان قام بحرب الاستنزاف التي راح ضحيتها عشرة آلاف شهيد ! وأعداد الشهداء هذه وفقاً لإحصائيات حسنين هيكل التي أوردها في كتبه ،والحقيقة أن عدد شهداء كلِّ معركة من التي هزمنا فيها أكبر من ذلك بكثير .

ويجب أن نعي جيداً أن جميع الاعتداءات التي وقعت على مصر وعلى جيشها في العهد الناصري والتي اضطرت عبد الناصر إلى اللجوء إلى السوفييت – منذ العدوان على العوجة والكونتلا إلى هزيمة ٦٧ والاحتلال الإسرائيلي والروسي لأجزاء من أرض مصر مروراً بحرب السويس وحرب اليمن – هذه الاعتداءات لم تجلبها مصر كدولة لها تاريخ حضاري مجيد ولها حدود تاريخيَّة لا ينازعها فيها أحد، إنما الذي جلب كلَّ

الاعتداءات الخارجيَّة على أرض الوطن وعلى القوات المسلَّحة هي السياسة الناصريَّة التي حوَّلت الأصدقاء إلى أعداء والأعداء إلى معتدين . (١)

ويعدُّ الناصريون ومؤلفو المقررات المدرسيَّة استجلاب عبد الناصر عداء القوى العظمى بطولة ، وريادة لمساندة قضايا التحرر الوطني ليس في البلاد العربيَّة فحسب بل في العالم أجمع !!

ولم يسأل هؤلاء الناصريون أنفسهم هل كان في استطاعة مصر الخارجة لتوِّها من احتلال دام ٧٤ سنة كاملة ومن حكم يقولون عليه أنه فاسد أن تلعب دور قوة عظمى جديدة تنافس أمريكا وروسيا على زعامة العالم ؟!

إن الواجب على رئيس أي دولة ناهضة السعي إلى كسب صداقة القوى العظمى أو على الأقل تجنُّب إثارتها والالتزام بالحياد الإيجابي حتى يتفرَّغ لبناء دولته وينهض بها نهضة شاملة تمكنها بعد ذلك من التأثير الفعَّال في السياسة العالميَّة .

ولكن عبد الناصر بدلاً من الاهتمام ببناء مصر وإقامة مؤسساتها وتنمية اقتصادها والاعتماد في كلِّ ذلك على الموارد الطبيعيَّة والبشريَّة لمصر والمصريين والتعاون في ذلك مع الدول العربيّة الشقيقة والدول الأجنبيَّة الصديقة فبدلاً من أن يسلك عبد الناصر هذا المسار الطبيعي للنهضة الحقيقيَّة راح يلعب دور الزعيم الإقليمي القادر على التحكم في سياسة الشرق الأوسط أو على الأقل الوطن العربي ليجني المساعدات الأجنبيَّة ويحقِّق الزعامة الدوليَّة حتى على حساب نهضة بلاده واستقراره !!

لقد أدرك عبد الناصر أنه لكي يكون لاعباً أسياسيّاً في المنطقة فلا بد أن يُخْضِع أكبر عدد من الدول الأسيويَّة والإفريقيَّة لنفوذه حتى يتمكن من حصد أكبر قدر ممكن من المساعدات الأجنبية .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأمن الخارجي في الحقبة الناصريَّة راجع كتابنا " نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " دار غريب .

يقول كوبلاند [١] : " اعتقد ناصر أنه في ذلك الوقت الذي تصاعد ضغط "اتحاد المحايدين" على مصادر المساعدات الأجنبيَّة الرئيسيَّة – وهوي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي – بصورة حسابية بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه عليها بصورة هندسيَّة مُرَكَّبة وعلى سبيل المثال فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين وحدهم له كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منَّا (أي الأمريكيون) لا تتجاوز جَدَلاً "س" وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن والقيمة تتضاعف وتغدو "س^{2} " وفي حال وقوف العالم الإسلامي معه فإنه يحصل على مساعدات تبلغ "س^{3} " وعند مؤازرة الدول غير الغربيَّة له (الإفريقية والآسيوية) فإنه يحصل على مساعدات قيمتها " س^{4} " . ولم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق باسم جميع الدول الإفريقية والآسيوية أو جميع دول العالم الإسلامي ، بل كان يكفيه أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته . ولم نكن لنتفرد في سلوك مثل هذا الطريق وحدنا بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضاً . فكنا وإياهم نفضِّل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستنا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء : اتحاد المحايدين " مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا . " [٢]

لم يكن عبد الناصر يطمح في أن يصير حاكماً لكلِّ العرب إداريّاً فهذا فوق طاقته وأكبر من إمكانياته إنما كان أقصى طموحه هو أن يكون في استطاعته توجيه سياسة الدول العربيَّة ، وأن يكون المتحدث الرسمي باسمها مع القوى الخارجيَّة دون أن يتحمَّل مغبَّة أن يكون مسئولاً عن إدارة شئونها الداخلية ، ولقد فشلت المحاولتان اللتان اضطر عبد الناصر فيهما أن يكون مسئولاً إداريّاً عن بلد آخر غير مصر كما حدث في الوحدة مع سوريا ، وحرب اليمن .

---

(1) لقد أثار الناصريون كثيراً من الشكوك حول كوبلاند وكتابه " لعبة الأمم " وصحة ما جاء فيه من معلومات ، ولكن حسن التهامي صديق عبد الناصر ومدير مكتبه السابق في حديث له مع عبد الناصر حول هذا الكتاب قد أكد أن عبد الناصر قد اعترف بأن كوبلاند قد أرسل له نسخة من هذا الكتاب لإبداء الرأي فيه قبل نشره وأن عبد الناصر لم يعترض على ما جاء في كتاب " لعبة الأمم " ووافق على نشره . راجع في هذا الموضوع كتابنا " أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " دار غريب .

(2) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير . انترناشنال سنتر – بيروت ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

هذه هي حقيقة علاقة عبد الناصر بحركات التحرر في البلاد العربيَّة والإفريقيَّة ، لقد تمَّت جميعها بالتعاون مع القوى العظمى أمريكا وروسيا اللتان كانتا تسعيان لتحرير البلاد الآسيويَّة والإفريقيَّة من قبضة الاحتلال القديم : الإنجليزي والفرنسي وإخضاعهما لهيمنة الاحتلال الجديد : الأمريكي أو السوفيتي بالتعاون مع عبد الناصر ، ولكن كما هو الحال في تحالف الصغار مع الكبار أن الخاسر دائماً هم الصغار ، ولكن في حالتنا هذه كانت الخاسرة في النهاية هي مصر والوطن العربي.

ولكن ماذا تقول المقررات المدرسيَّة عن تدخُّل عبد الناصر في شئون البلاد العربيَّة والأفريقيَّة على حساب شئون بلاده الداخليَّة ؟

يقول د. زكي البحيري : " أعطت حكومة الثورة عناية فائقة ورائدة لقضايا التحرر الوطني في بلدان العالم العربي وأفريقيا والعالم كله ، وعن هذا الموضوع جاء كتاب الشهادة الإعداديَّة لسنة ١٩٥٩ أن سياسة مصر بعد الثورة تقوم على " مقاومة الاستعمار حيثما وجد وبأي صورة كان .. وتقاوم مصر الاستعمار الإنجليزي في عدن والمحميات وعمان وتقاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر ؟ " (١)

ويعترف د. زكي البحيري وهو الناصري بخطأ عبد الناصر في التدخُّل العسكري في شئون البلاد العربيَّة والإفريقيّة على حساب أمن مصر الخارجي مما ترتَّب عليه هزيمة مصر في ٦٧ فيقول : " ولم يقتصر دور ثورة يوليو في مساعداتها لحركات التحرر على أفريقيا فقط بل امتدَّ هذا الدور إلى بلدان آسيويَّة خاصة البلاد العربيَّة ؛ فقد دعَّمت حكومة العراق بعد الاستقلال وأيَّدت الثورة اليمنيَّة بالجيوش والمال لمواجهة الرجعيَّة والاستعمار ، إلا أنه كان من الأنسب بالنسبة لمصر وقتها – كما يرى البعض – أن تقتصر على المساعدة بالمال والسلاح والتدريب لبعض الحركات التحريريَّة ، وخاصة فيما يتصل بالثورة اليمنيَّة ذاتها ، وذلك بدلاً من إرسال الجيوش التي لم تكلِّفها تكاليف باهظة فحسب ، وجعلتها في صدام عنيف مع الاستعمار فقط بل أضرّت بمصر خاصة عندما خاضت حرب ١٩٦٧ .

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٨٤ .

لقد شنَّت إسرائيل الحرب في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ضد مصر والبلاد العربيَّة المجاورة لها بهدف تقويض حركة التطوُّر والتحرر ، والتوحد العربي مستغلَّة أنسب الظروف العربيَّة والدوليَّة المواتية لها ، فاستولت على شبه جزيرة سيناء في مصر ، واحتلَّت هضبة الجولان في سوريا وضمَّت الضفة الغربيَّة لنهر الأردن وقطاع غزة الذي كان تحت الإدارة المصريَّة " (١)

ويقول د. زكي في موضع آخر مقيماً التجربة الناصريَّة : " لقد اعتمد القائمون على الثورة على الكلام الإعلامي دون تنفيذ في بعض الأحيان مثل " سنهزم إسرائيل " و" سنحطِّم الاستعمار " إن عدم المشاركة الشعبيَّة في قرارات الوطن المصريَّة ، ومعاناة نظام يوليو من الحصار الاقتصادي والإعلامي ، وسوء الإدارة ، وتربُّص القوى الداخليَّة والخارجيَّة خاصة القوى الإمبرياليَّة المتمثلة في الولايات المتحدة وإسرائيل ومن ارتبطت مصالحه بهما هو الذي أدَّى إلى ضرب نظام ٢٣ يوليو تلك الضربة المدوَّية عام ١٩٦٧ ولو أن مناوراتهما من أجل إسقاط هذا النظام الوطني المستقل لم تتوقف . " (٢)

إنجازات مجلس قيادة الثورة أم إنجازات عبد الناصر ؟

إن من أوجب المهام التي تؤديها الحكومات المتسمة بالفعالية تحسين مستوى معيشة شعوبها بأن توفِّر لهم سبل الحصول على الخدمات الأساسيَّة – كالصحة والتعليم والماء النقي والصرف الصحي والكهرباء والنقل – وفرصة الحياة والعمل في سلام وأمن .

وليس هذا تفضلاً منها على شعوبها بل واجباً عليها نحوهم ، ولكن النظم الدكتاتوريَّة تؤمن بأنَّه لا حقَّ للشعوب على حكامها إلا ما يتفضل به حكامها عليها تماماً كما هو حال السيد مع عبده .

قصة منجزات الثورة في المشروعات الخدميَّة بدأت تظهر بوضوح بعد الصراع الذي اقتحمه عبد الناصر لينتزع من محمد نجيب الحكم لذا شرع أعضاء مجلس قيادة الثورة

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٨٦ .
(٢) نفسه ص ١٧١، ١٧٢ .

يتقرَّبون أكثر من الجماهير ليس فقط عن طريق الخطب بل عن طريق إنجاز بعض المشروعات الجماهيريَّة ليكسبوا تأييد الجماهير في صراعهم على الحكم مع نجيب .

يقول خالد محيي الدين : " اتفقنا على ضرورة الإسراع بمشروعات بناء المدارس والوحدات الصحيَّة في القرى كسبيل للحصول على مساندة جماهيريَّة في موجهة أية أخطار أو أية تحركات سياسيَّة مناوئة " [١]

وفي موضع آخر يقول خالد محيي الدين : " الاقتراب من الجماهير يتطلب عملاً متجهاً لتحقيق مصالحها ، أو على الأقل البعض من هذه المصالح ، وهكذا كان الإصلاح الزراعي ، ثم كانت النهضة الاجتماعيَّة التي كرَّست من أجلها الأموال المصادرة من أسرة محمد عليّ ، حيث تم بناء مدرسة ووحدة صحيَّة ووحدة اجتماعيَّة في كل قرية ، كانت مصر في ذلك الحين تبني مدرسة في كل يوم، وتبني وحدات صحيَّة على امتداد ريف مصر كله " [٢]

ويجب أن نتوقف قليلاً أمام ما ذكره خالد محيي الدين لنستخلص منه عدة نتائج مهمة :

١- إن أعضاء مجلس الثورة – في ذلك الوقت – لم تكن تهمهم مصلحة الجماهير إلا بقدر ما تقوي مكانتهم في السلطة ، فإقامة المشروعات الخدميَّة لم تكن حبّاً في هذا الوطن بل كان هدفها تقوية نفوذ مجلس قيادة الثورة ضد نفوذ محمد نجيب ! أو لكسب الجماهير بعد ذلك .

٢- لم تكن المشروعات الخدميَّة التي أقامتها الثورة تامة التجهيز مكتملة الإعداد إنما في الغالب الأعم هي مسميات على غير مسمى فالمدارس مثلاً قال خالد محيي الدين أنه بُني في كل قرية مدرسة ، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه فقد ظلَّت قرى كثيرة جداً محرومة من التعليم والصحة ، وعلى فرض صحة ما قاله خالد محيي الدين أن مجلس قيادة الثورة بنى في كل قرية مدرسة لكن ما هي صفات تلك المدرسة ؟ وما المنتج التعليمي منها ؟ الحقيقة أن كثيراً من هذه المدارس كانت أقل نفعاً من كتَّاب

---

(1) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٩٢ .
(2) نفسه ٣٢٦ .

القرية الموجود ؛ فهي مدرسة بلا إمكانيات ولا مدرسين مؤهَّلين وسوف نعود للتحديث عن نظام التعليم بعد ثورة يوليو لاحقاً .

٣- إن الأموال التي بنت الثورة بها هذه المشروعات الخدميَّة لم تكن فائض إنتاج أو عمل إنما كانت جزءاً من الأموال المصادرة من أسرة محمد علي وتأميم البنوك ومصانع وشركات الأفراد .

٤- إن الذي قام بهذه المشروعات أعضاء مجلس الثورة في وقت أن كان القرار يؤخذ برأي أغلبيَّة الأعضاء وقبل أن ينفرد عبد الناصر بالحكم ويحل مجلس قيادة الثورة ، أو عندما كان عبد الناصر الأول بين متساويين على حسب تعبير هيكل .

يقول زكريا محيي الدين : " في الأعوام الأولى من الثورة خاصة عاميها : الأول، والثاني كنا ناقش القرارات قبل إصدارها ونقوم بالتصويت عليها ولكن بعد ذلك اختفى مبدأ التصويت وأصبح القرار في النهاية لشخص واحد حتى ولو اختلفنا حول هذا القرار . وعلى سبيل المثال فقد كان قانون تحديد الملكيَّة الزراعيَّة والإصلاح الزراعي من القوانين التي تمَّ التصويت عليها ، ولم يكن بيننا خلاف حول ذلك كما أن القرارات في بداية الثورة لم تكن تخضع لأفكار سابقة ، كنَّا نتعامل مع الظروف والأحداث التي نراها أمامنا وعلى ضوء هذا الواقع تكون القرارات والإجراءات التنفيذية . " [١]

والعجيب أن معظم المنجزات التي يفاخر به الناصريون وينسبونها لعبد الناصر وحده لا شريك له تمَّت في عهد محمد نجيب إبان أن كان رئيساً للجمهورية أو كان محمد نجيب قد خطَّط لإتمامها مع أهل التخصُّص لا أهل الثقة ، وما تم من هذه المنجزات بعد اعتقال نجيب جاء طفرة فجائية من أجل الدعاية السياسيَّة ولم يأخذ حظه من التخطيط المحكم ولا من الدراسة المتخصِّصة مما أفقده كثيراً من مميزاته العمليَّة وإن كان قد أدى دوره في الدعاية للزعامة الناصريَّة ، وفي ذلك يقول محمد نجيب : " بعد قانون الإصلاح الزراعي ، فرضتُ قانون تخفيض إيجار المساكن بنسبة ١٥ % ، وألغيتُ الأوقاف – عدا الأوقاف الخيريَّة – وألغيتُ البوليس السياسي، ورفعتُ مرتبات الجنود من ٦٩ قرشاً في الشهر حتى وصلت إلى ٣ جنيهات ،

---

(1) من لقاء فاروق جويدة ، زكريا محيي الدين " من يكتب تاريخ الثورة ؟ " دار غريب ص ٤٨.

وسعيتُ لتحرير الأزهر من قيود الارتباط بالحكم فأصدرتُ قراراً بحلِّ جماعة كبار العلماء ، وبدأت مواجهة شرسة من أجل تحديد النسل ، وتخفيض حجم المشكلة السكانيَّة ، وسعينا لإدخال مياه الشرب والجمعيات التعاونيَّة والوحدات الصحيَّة في القرى ، وشدَّدنا العقوبة على الاتجار بالمخدرات ، وقرأتُ مقالاً للدكتور سيد عبد الواحد يتوقَّع فيه أن تحدث أزمة خانقة في المواصلات والمرور إذا لم نسارع بالتخطيط لمواجهتها ، واقترح د. عبد الواحد أن ننفذ مشروع مترو الأنفاق وطلبتُ من وزير المواصلات أن يناقش فكرة د. عبد الواحد لنرى كيف يمكن تنفيذها لكن ضاعت الفكرة بعد أن اعتقلتُ ، ولم يؤخذ بها إلا في الثمانينات ، وكنت من أنصار تنوُّع مصادر الدخل القومي ، وألا نعتمد على الزراعة كل هذا الاعتماد الكبير كنتُ مع التصنيع ، ولكن ليس مع هذا التصنيع الفجائي الضخم الذي دفعنا إلى إهمال الزراعة ، وتحولت مصانعه إلى دعاية سياسيَّة وخسائر اقتصاديَّة ، ولقد حددتُ في ١١ أكتوبر ١٩٥٢ سياستي الاقتصاديَّة أثناء اجتماعي في الغرفة التجاريَّة مع رجال الاقتصاد والمال والصناعة فقلتُ لهم : أولاً، العمل على الاستقرار الاقتصادي بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له . ثانياً، العمل على تشجيع استثمار رءوس الأموال الأجنبيَّة ورءوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر في الأوجه النافعة لتنمية الاقتصاد وتقويته ، كما نعمل على تشجيع الأفراد والهيئات ليزداد نشاطها الاقتصادي وبالتالي يزداد نمو الثروة القوميَّة وهذا هو الركن الأول من نهضتنا .

وبالطبع انقلبت كل هذه الأسس بعد أن أُقْلِتُ من الحكم ، فزع رأس المال الفردي، وأصبح العمال هم القادة ، ولم تعد هناك ضمانات للاستقرار أو للاستثمار ، كلُّ شيء كان ينفذ بأسلوب الطفرة ، وضاع أهل الخبرة وجاء أهل الثقة ، ودخل الضباط كل المشروعات والمرافق . إن المشروعات التي أقيمت في الستينات كانت بلا تخطيط ، وبلا كوادر تديرها ، كانت مباني بلا معنى ، وكانت دعاية لا ضرورة اقتصاديَّة .

ووصل التزوير في بعضها إلى حد الإعلان عن إنتاجها السنوي دون أن يفتتح المصنع أصلاً . حتى المشروع الضخم المسمى بالسد العالي كان الاهتمام بالجانب السياسي والدعائي فيه أهم وأكبر من الجانبين : الاقتصادي والفني ، كان لابد أن نقيم المشروعات المكمِّلة له وإلا فقدنا الكثير من المميزات التي كنا نتمتَّع بها قبل بنائه وهذا ما حدث فعلاً فجاءت مميزات السد أقل من عيوبه لقد كانت الدراسة الفنيَّة

وجدوى مشروع السد العالي أمامنا وأنا لا أزال بعدُ رئيساً للجمهورية ونبتت في رأسي فكرة إرسال بعثات اقتصاديَّة إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكيَّة للاطمئنان على إمكانيَّة تمويله بلا متاعب ، وأعددنا دراسة لكل مشروعاتنا وأرسلناها إلى مختلف الدول بما فيها الاتحاد السوفيتي ، وافتتحت بنفسي معرض ألمانيا الديمقراطيَّة التي أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر ورصدت دخل المعرض كله للجمعيات الخيريَّة المصريَّة ، إنني كنت مؤمناً بضرورة مصارحة الشعب بكل شيء ؛ فالتحوُّل الاجتماعي بدون حرية خراب ، والتحول الاجتماعي بدون ديمقراطيَّة هبة من الحاكم يمكن أن يسحبها ، وفي كلِّ قرار كنتُ أتخذه كنتُ ألجأ للخبراء وأهل المعرفة . إنني لم أكن أري إلا مصلحة مصر ، وفي سبيل هذه المصلحة ضحيتُ بكياني وأحلامي وأعصابي إن شعار "مصر فوق الجميع " كان شعاراً حقيقيّاً في عهدي ، ولكن الشعار انقلب تماماً في أيام أخرى تلت اختفائي من على المسرح . " (١)

وعليه فما قامت به الثورة من إنجازات كإصدار قانون الإصلاح الزراعي، على ما به من مآخذ، وإنشاء الكثير من المدارس، وإن كان على حساب جودة التعليم، وكذا إنشاء الوحدات الصحيَّة ، وكهربة خزان أسوان، والإعداد لبناء السد العالي، واتفاقية الجلاء . إلى آخر ما ينسبه الناصريون والقوميون من إنجازات لعبد الناصر وحده هي في الحقيقة إنجازات لمجلس قيادة الثورة الذي كان برئاسة محمد نجيب ولم يكن عبد الناصر إلا أحد أعضائه، وكان اتخاذ الرأي فيه بالأغلبية.

كما لا ينبغي أن نغفل دور الوزراء المدنيين والمستشارين الذين استعانت بهم الثورة في تحقيق هذه الإنجازات.

يقول أنور السادات : " كانت حصيلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه أنفقناها على بناء الوحدات المجمَّعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبني ٣ مدارس كل يومين ، وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بُنِي في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

---

(1) لمزيد من التفصيل راجع الفصل الثالث عشر " بداية التحول الاجتماعي " من كتاب محمد نجيب "كنت رئيساً لمصر" مرجع سابق .

أنشأنا عند ذاك مجلسين . أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات ، أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع "كيما" للسماد وعندما تعود بي الذاكرة إلى تلك الأيام أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر زائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسيَّة في أي وقت وبدون سابق ميعاد ، كان اسمه على ما أذكر "دانينوس" وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوَّه بعبارات محمومة فحواها دائماً فكرة واحدة وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عالٍ .

كان تمسُّكه بالفكرة وإلحاحه عليها مما دعانا إلى أن نكلِّف مستشار المجلس (مجلس قيادة الثورة) المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها ، وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداءً أنها فكرة رائعة ، وهكذا نشأت فكرة السد العالي ، وليدة للإيمان والحماس والبصيرة كما تنشأ كل الأفكار العظيمة.

وفي سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظلَّ يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة وهو مشروع كهربة خزان أسوان .. ولعل المشروع الذي غيَّر وجه المجتمع المصري والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقيَّة لا مجرد انقلاب عسكري هو مشروع الإصلاح الزراعي ، فبعد أن ترك علي ماهر الحكم في سبتمبر ١٩٥٢ وتولى الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكيَّة الزراعية بـ ٢٠٠ فدان وللتاريخ فإن الذي صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعي .. " (١)

لاحظ ، عزيزي القارئ ، صيغة الجمع التي يتحدَّث بها خالد محيي الدين والسادات والتي تدل على أن العمل كان جماعيّاً : مجلس قيادة الثورة مع الوزراء والمستشارين المدنيين الذين لم تخلُ منهم أي وزارة حتى ولو كانت عسكريَّة .

الشرق وعبادة الفرد

ونسبة كلِّ إنجاز لشخص واحد فكرة قديمة أشهر من قام بها الشيعة مع علي بن أبي طالب فنسبوا إليه علم النحو وعلم التفسير وعلم الفقه كما نسبوا إليه علم الفلك والنجوم .

---

(1) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٤٢ ، ١٤٣.

يقول العقاد عن انتحال غلاة الشيعة كل العلوم لعلي رضي الله عنه: " فقلَّ أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلاميَّة أو العلوم القديمة لم ينسب إليه – أي لعلي رضي الله عنه – ، وقلَّ أن تحدَّث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه .

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونحلوه علماً سموه " الجَفْر " وزعموا أنه علم النجوم والأزياج [١] الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان .. " [٢]

وكما نسب غلاة الشيعة لعلي بن طالب رضي الله عنه كل فضل نسب غلاة الناصرية لعبد الناصر وحده لا شريك له : الإعداد للثورة وإنجاحها ، طرد الملك وإسقاط الملكية ، طرد الإنجليز وتحقيق الجلاء ، إصدار قانون الإصلاح الزراعي والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال ، إلغاء الأحزاب والقضاء على فساد الحكم ، إنشاء المدارس ، ومجانيَّة التعليم ، إنشاء كورنيش النيل ، إقامة المصانع المنتجة والشركات الرابحة ولولا عبد الناصر لظلَّ الملك الفاسد ، والاحتلال الإنجليزي الغاصب ، وما تعلَّم فقير ولا عولج مريض ولا أُطْعِمَ مسكين فهو الذي قضى على الثالوث الرهيب الجهل والفقر والمرض !!

والعجيب أن يؤمن بهذا الكلام ليس العامَّة فقط الذين نشئوا وتربوا وتعلموا في ظل الحقبة الناصريَّة (وهم غالباً الذين ولدوا في الفترة ما بين سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦٥) إنما كثير من المتعلِّمين والمثقفين !!

يقول السادات عن الخدمات في العهد الناصري : " في سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلي صبري كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً في أي شيء ؛ لأنه بطبعه يخشى المسئوليَّة وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه ؛ فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتوريَّة كان يتطلب من رئيس وزرائه أن

---

(1) الزيج : كل كتاب يتضمن جداول فلكية يُعرَف منها سير النجوم ، ويُستخرَج بواسطتها التقويم سنة سنة " المعجم الوسيط .

(2) عباس محمود العقاد " عبقرية الإمام " ص ١١٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب ، وهكذا كان علي صبري فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعي إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرُّم الناس به ، فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها .

ومما جعل الحالة تزداد سوءاً أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجَّل ابتداءً من سنة ١٩٦٢ على أساس حلها بخطط طموحة لم تكن قابلة للتنفيذ ، مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد سنة بحيث أصبح من العسير حلها ، وكان العذر الذي يتذرع به المسئولون في هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للإنتاج المشترك مع السوفييت .

في نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكيَّة عن مصر فوضعنا في موقف حرج إذ كشف بهذا خططنا فقد كنَّا معتمدين على أمريكا في القمح الذي كنَّا نستورده منها بالجنيه المصري فيوفر لنا حوالي ٨٠ مليون جنيه إسترليني نستفيد منها في مشاريعنا . " [١]

إنجازات الأمس هل تصلح للتطبيق اليوم ؟

إن هناك بعض ما عدَّه الناصريون من إنجازات عبد الناصر بمرور الزمن اتَّضح أنها من كوارثه مثل التأميمات الجائرة التي تمَّت دون محاكمات عادلة مما أثَّر تأثيراً كبيراً على حجم الاستثمارات المصريَّة والعربيَّة والأجنبيَّة ، كذلك تخفيض إيجار المساكن ، والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " وهذان القراران قد تسببا في أزمة السكن التي ظهرت ابتداءً من السبعينات ومازالت مستمرَّة حتى اليوم، بسبب إحجام المستثمر المصري عن استثمار أمواله في مجال التعمير والبناء لارتفاع تكاليفه وانخفاض العائد منه .

يقول د. أسامة الغزالي حرب أستاذ السياسة والاقتصاد ورئيس حزب الجبهة الديمقراطية الليبرالي المصري : " بالرغم من الإنجازات التي تمتَّع بها الشعب المصري وقت عبد الناصر نتيجة الآثار المباشرة لكثير من القرارات الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة ما لبث أن ظهرت آثارها السلبيَّة الفادحة في العقود والأجيال التالية ، فالتأميمات وبناء

([1]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

القطاع العام التي استمتع الشعب بثمارها في الستينات ما لبثت أن ظهرت آثارها السلبيَّة مع ترهُّل القطاع العام وتمكُّن البيروقراطيَّة منه ، وربما النتائج السلبيَّة أكثر وضوحاً في مثال السياسة السكانيَّة ، ففي أيام عبد الناصر استمتعت الطبقات الوسطى بالذات بتخفيض إيجارات المساكن والمدن والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " بالترهيب الإداري والأمني ، ولكن عيوب هذه السياسة لم تظهر إلا بعد ذلك حينما أحجم القادرون عن بناء المساكن ! ولم تستطع الحكومة وحدها مواجهة الطلب عليها مما نجمت عنه – بعد عهد عبد الناصر – واحدة من أسوأ أزمات السكن في مصر ، وما تزال بعض تداعياتها قائمة حتى الآن " [١]

وفي موضع آخر من كتابه عن عبد الناصر في ذكراه الثلاثين يقول د. أسامة :

" ظلَّ رأس المال الضروري للاستثمار شحيحاً وسالباً في آخر سنوات عبد الناصر ، وظل مستوى المعيشة لعامَّة الناس منخفضاً فزادت مثلاً نسبة فقراء الريف من ٢٣ % سنة ١٩٥٨ إلى ٤٤ % في أوائل السبعينات ، واستمرَّ الفقر متفاقماً في المدن أيضاً ، ولم يترفع متوسط الدخل الفردي إلا بنسبة ٢.٧ % سنويّاً وظلت تبعيَّة الاقتصاد قائمة بل ازدادت تفاقماً ، وظلَّت الصادرات المصريَّة في معظمها من المواد الأوليَّة مع فارق أن النفط أخذ مركز الصدارة محلَّ القطن ، وازداد العجز في توفير المواد الغذائيَّة محليّاً ، وتضخَّمت أعباء الدولة الماليَّة ، وظلَّت الزراعة عام ١٩٧٠ هي القطاع الإنتاجي الأكبر – باستثناء البترول والغاز – وتستوعب أكبر نسبة من الأيدي العاملة ٥٧ % ولم تتعدَّ حصتها من الناتج القومي ٢٨ % أي لم تعد الإنتاجيَّة الزراعيَّة سنة ١٩٧٠ أفضل مما كانت عليه عام ١٩٥٢ ، وأخيراً فقد طرأ ركود على الاقتصاد المصري منذ عام ١٩٦٣ لازمه حتى وفاة عبد الناصر .

غير أن أكثر الجوانب سلبيَّة في الخيار الاقتصادي لعبد الناصر قدِّمت باعتبارها فضائل وطنيَّة واجتماعيَّة في الستينات ، ونشعر الآن – ونحن في مقتبل القرن الواحد والعشرين – أن عكسها – بالضبط – هو المطلوب لنهضة الاقتصاد المصري .

---

[1] د . أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " دار مصر المحروسة ص ٢٨

ففي حين كان التخلُّص من المشروعات الأجنبيَّة والاستثمارات الأجنبيَّة من خلال التمصير علامة على الاستقلال الاقتصادي والعزَّة القوميَّة في ظلِّ عبد الناصر في الخمسينات فإننا اليوم نعي أن القدرة على جذب الاستثمارات الأجنبيَّة ، وعلى التفاعل الصحي مع العالم الخارجي هي العلامة الأكثر دلالة على قوة الاقتصاد وحيويته !

وفي حين كانت سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج وهيمنة الدولة والتقليل من شأن القطاع الخاص علامة على السمة التقدميَّة للاقتصاد وعلى العدل الاجتماعي في الستينات فإننا اليوم نعي أن تشجيع القطاع الخاص ، والمبادرة الفرديَّة ، وضمان التنافس بين المشروعات ، وبعدها عن الاحتكار – هو الذي سوف ينعش الاقتصاد المصري ويدفعه إلى الأمام !

وفي حين سادت الخمسينات والستينات استراتيجية (إحلال الواردات) باعتبارها أداة لتلبية احتياجات الجماهير وتوفيرها بأسعار معقولة فإننا اليوم نعي أن التوجُّه نحو التصدير ، والاستعداد لما يستلزم من كفاءة إنتاجية وتسويقيَّة عالية (وليس مجرد الانكفاء على السوق المحلي) هو فقط ما سوف يهيئ الاقتصاد المصري للارتقاء إلى المستوى العالمي وتحقيق نقله له تتكافأ مع مستوى آمالنا وطموحنا .

وبمثل هذا المنطق الجديد يمكن أن نحقق الآمال والأحلام التي راودت عبد الناصر بشأن رفاهية شعب مصر وازدهار اقتصادها ، ولكن من خلال خيارات أخرى تختلف بالضرورة عما اختاره عبد الناصر منذ أربعة عقود ! " [١]

يقول فاروق جويدة عن إنجازات ثورة يوليو : " إن كل الإنجازات مهما كانت عظيمة تبدو هزيلة في ظل غياب حرية المواطن وإحساسه بالأمن ، وكل الشعارات البرَّاقة لا تزيل لحظة خوف ، أو إحساس بالمهانة ، وكل ما قرأنا من أهداف ثورة يوليو وهي جزء عزيز من حياتنا تلاشى أمام تعذيب مواطن أو الاعتداء على حرمة بيت أو إنسان .

([1]) د. أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر ، قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " مرجع سايق ص ٥٦ ، ٥٧

من هنا نأتي إلى جوهر القضية وهو أن الشرعيَّة الثوريَّة التي حكمت بها ثورة يوليو مصر ينبغي ألا يكون لها مكان الآن وأننا نتَّجه بالفعل إلى شرعيَّة دستوريَّة يجب أن نكملها بحيث توفر الضمانات لكل الأطراف حكاماً ومحكومين" [١]

وإذا كان قانون الإصلاح الزراعي قد حصل على تأييد غالبيَّة مجلس قيادة الثورة وحدث نقاش مجتمعي حوله قبل صدوره فإن القرارات الاشتراكية ، والتأميمات الشاملة قد اتخذها عبد الناصر بطريقة فردية سرية بعدما استبد بحكم مصر .

يقول د. أسامة الغزالي حرب متحدثاً عن سمات الحكم الناصري الذي أهم ما يميزه : " الطابع الفردي في اتخاذ القرارات الحيوية وفي مقدمتها قرار التأميمات الشاملة عام ١٩٦١ الذي يعد حجر الزاوية في تغيير النظام الاقتصادي . وبداهة فقد كان التوجه نحو التأميمات الواسعة يلقى من الأساتذة ورجال الاقتصاد التقليديين، الذين رفض عبد الناصر آراءهم ويصاب المرء بالدهشة البالغة للطريقة التي أعدت وأعلنت بها القرارات الاشتراكية بدءاً من ١٩ يوليو ١٩٦١ كما يرويها أحمد حمروش : " صدرت هذه القوانين بطريقة الصدمة المفاجئة . اعتمد عبد الناصر في إصدارها على السرية ! لم يستشر فيها أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين ، وإنما عرض الموضوع للمناقشة في جلسة واحدة خاصة بالإسكندرية حضرها عبد الناصر ، وعامر ، والبغدادي ، وزكريا محيي الدين ، وكمال الدين حسين فقط ! " وغيرت هذه الجلسة مسار الاقتصاد المصري برمته لعقود طويلة تالية ! " [٢]

وإذا كان من العجيب أن يتخذ عبد الناصر أخطر القرارات الاقتصادية بطريقة فردية وسريَّة فالأعجب وهو الأسلوب الإداري والأمني الذي تمَّت به عملية التحوُّل الاشتراكي ، والتي كان يفترض أن تتم في سياق تحوُّل فكري عميق، وبوجود كوادر " اشتراكيَّة " . ولكن التحوُّل تمَّ في وجود المفكرين والقيادات الاشتراكيَّة في السجون والمعتقلات ! وبدا وكأن التوجهات السياسيَّة والأوامر الإداريَّة كفيلة بحل المعضلات

---

(1) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(2) د. أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر ، قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " ص ٥١ ، ٥٢ .

الاقتصاديَّة بما فيها ما سمي بـ " المعادلة الصعبة " أي زيادة الإنتاج مع زيادة الاستهلاك وزيادة الادخار ؟ [١]

شهادات كبار المفكرين على علاقة ثورة يوليو بالنهضة

وسأكتفي في معرض الحديث عن علاقة ثورة يوليو بالنهضة المصريَّة بذكر شهادات بعض كبار المفكرين المصريين الذين درسوا ثورة يوليو وكتبوا عنها .

شهادة لويس عوض

يقول لويس عوض : " أنا لست ممن ينظرون إلى ثورة عبد الناصر ونظامه نظرة رومانسيَّة فيقولون أنهما لم يفعلا إلا خيراً ، بل أنا ممن يعتقدون أنهما مع ما جاءا به من خير كثير قد دمَّرا بعض أسس المجتمع المصري الراقية التي بناها المصريون خلال المئتي سنة الأخيرة نتيجة احتكاكها المباشر بالحضارة الأوربيَّة : كمبدأ القوميَّة المصريَّة ، ومبدأ الحق الطبيعي ، وكالحقوق والحريات الديمقراطيَّة : فصل الدين عن الدولة وفصل السلطات وسيادة القانون وسيادة الأمَّة على الحكومة وحرية الاجتماع والتفكير والتعبير والعمل والاختيار ، وحرية التنظيم والتمثيل والتوكيل السياسي إلخ وهكذا زعزعت الناصريَّة ، بعد خروج عبد الناصر منتصراً في حرب السويس وبروزه كزعيم للعالم العربي ، إيمان المصريين بهويتهم المصريَّة وبشخصيتهم المصريَّة ، ومحت اسم مصر ودعت المصريين إلى فقدان أنفسهم في كيان سياسي أكبر هو كيان الأمَّة العربيَّة الممتدة من الخليج إلى المحيط، وبعد أن كانت العروبة في ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ أيام " فلسفة الثورة " مجرد دائرة من الدوائر الثلاث التي تقع مصر في تقاطعها وتستخدمها رصيداً لقواتها ولقوة المنطقة العربيَّة وأصبحت مصر مركز دائرة واحدة هي الوحدة العربيَّة . كذلك نسفت الناصريَّة أكثر الحقوق والحريات الديمقراطيَّة .

---

(1) نفسه ص ٥٢ .

وبالمثل اقتلعت الثورة الناصريَّة بحلٍّ كافة التنظيمات السياسيَّة ، وتحريم كافة التجمعات المنظمة ، وتجريم كافة التجمعات غير المنظمة ، وإقامة حياتنا السياسيَّة على مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة داخل وعاء واحد تسيطر عليه الدولة ، هو هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي ، اقتلعت الثورة الناصريَّة حق الأفراد والجماعات والطبقات في التفكير السياسي وحريتها في العمل السياسي، وبذلك جرَّدت الثورة المصريين من حقوقهم السياسية وعزلت الشعب المصري برمته عزلاً سياسيّاً إلا من سار في مسيرتها بالولاء الشخصي . فقد كانت فلسفتها مبهمة وبرامجها غامضة ومناهجها متغيرة الظروف ، وبذلك ألغت الثورة الفرق بين الدولة والحكومة فغدت الدولة هي الحكومة والحكومة هي الدولة ، وألغت الفرق بين الشعب ووكلائه المعبرين عن إرادته لأنها جرَّدت الشعب من حقٍّ توكيله لممثليه السياسيين المختارين له قبل الثورة ، وأنكرت التعارض بين مصالح الطبقات الخ .

كذلك أعلن بعض الثوَّار أن " القانون في أجازة " ، والحقيقة أن نظرية القانون نفسها قد انهارت فتحول القانون من معيار موضوعي واضح يستمد من العرف العام ومن الضمير العام ومن المصلحة العامة إلى قرارات وإجراءات فرديَّة تقديريَّة تتخذ مستمدة من الظروف الموقوتة والاحتياجات الطارئة . وابتكر سوفسطائيو الثورة نظرية الفقه الثوري والشرعيَّة الثورية ليبرروا هذه الإجراءات والقرارات الاستثنائية بدلاً من أن يبصروا الحاكم بأن الفقه الثوري والشرعيَّة الثوريَّة معناهما وضع فلسفة تشريعيَّة جديدة موضوعيَّة المعايير مستمدة لا من سلطات الحاكم التقديريَّة ولكن من العرف العام والضمير العام والمصلحة العامة للطبقات التي قامت الثورة لتردَّ لها أهليتها القانونيَّة وللغايات التي قامت الثورة لتحقيقها.

أما حرية التعبير فقد أصبحت عبارة بلا معنى في مختلف دساتير النظام الناصري بعد تحريم التنظيمات السياسية وتجريمها وبعد تأميم الصحافة ودور النشر ومختلف وسائل الإعلام وتتبيعها إما للاتحاد القومي – الاشتراكي وإما للسلطة التنفيذيَّة مباشرة (وزارة الإرشاد – الإعلام) .

وبتأليه الدولة اندمجت فيها السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ومعها السلطة الرابعة (الصحافة) وغدت الأذرع الأربع للزعيم الذي تجسدت فيه إرادة الدولة . بل إن وظائف الجيش والبوليس اختلط بعضها الآخر بعد إعلان عضوية الجيش في تحالف قوى الشعب لأنه غدا بهذا مسئولاً مسئولية رسمية مباشرة عن حماية النظام الداخلي لأنه طرف من أطرافه . " (١)

ويختتم د. لويس عوض تقيمه لحكم عبد الناصر قائلاً : " ولأن عبد الناصر لم يُصَفِّ أعداء ثورته في الداخل وثبوا عليه حين وثب عليه الاستعمار من الخارج فأجهزوا عليه وعلى نظامه في ١٩٦٧ . وهو لم يُصَفِّ أعداء ثورته في الداخل لأنه لم يكن يعرف من هم على وجه التحديد بسبب فقره النظري وبسبب احتقاره أو خوفه من أصحاب النظريات وإسرافه في الاعتماد على الفطانة والإلهام وقد كان عنده منهما شيء كثير . ولكن الكثير نفسه غير كاف في أهم المواقف . كان يحسب أن أعداء ثورته هم الباشوات والبكوات وحدهم ، ولأنه ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة ظنَّ أن مشكلات مصر تحل بتحويل كل المصريين إلى طبقة متوسطة صغيرة . ولأنه ابن لطبقته المتوسطة الصغيرة فهو لم يتشكك قط في قداسة الملكية الفردية ثم ارتكب الإثم الأكبر بأن جعل الدولة تنافس الأفراد في الملكية ، بعد أن اكتشف أنه بغير التنمية الضخمة لن يوزع إلا فقراً . ولأنه ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة أدرك بغريزته ، وربما بتوجيه من العارفين ، بأنه إذا لم يصدر ثورته إلى الخارج ، فسيضطر أن يعمقها في مصر يوماً بعد يوم. وحين رفض رفضت سوريا قبول صادراته الفكرية والاجتماعية ، عمق ثورته في مصر بالميثاق ، ولكنه لم يرسخها بل عاد إلى التصدير حتى يتجنب مزيداً من التعميق . لقد كانت القومية العربية ثم الاشتراكية العربية مهربة الموضوعي من مواجهة الفلاحين الحفاة ، قوام الريف المصري ، والعمال الكادحين ، قوام المدينة المصرية ، وملايين الفقراء الضائعين الذين لا ينتمون إلى ريف أو مدينة .

لهذا ترك عبد الناصر شعبه بعد ثمانية عشر عاماً من قيادته كما تسلمه من فاروق : نسبة الأميين فيه ٧٥ % ولهذا ترك عبد الناصر شعبه كما تسلمه من فاروق :

---

(1) د لويس عوض " أقنعة الناصرية السبعة " مرجع سابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .

متوسط الدخل القومي فيه نحو ٥٠ جنيهاً سنوياً للفرد الواحد ومتوسط الأمراض فيه نحو ثلاثة أمراض للفرد الواحد .

لهذا أمكن ضربه ولهذا يجري الآن ضرب ثورته على قدم وساق . البورجوازية تقول فيه : هذا كان عاقاً من أبناء طبقتنا . والبروليتاريا تقول فيه : هذا ليس ابناً من أبنائنا ولكنه كان يحسن الحديث إلى الفقراء . "[١]

شهادة فاروق جويدة

ويقول فاروق جويدة ، وهو ابن من أبناء ثورة يوليو، مقيِّماً فترة حكم عبد الناصر:" وجد شباب الثوار أنفسهم أمام وطن كبير حملت لهم الأقدار وربما المصادفة مسئولية حكمه ، وهم في الحقيقة غير مؤهلين بحكم السنِّ والتجربة لكي يخوضوا تجربة في الحكم بهذه الضخامة . أن البلد الذي أصبحوا حكاماً له يملك تراثاً طويلاً من الحكم ويضم مؤسسات تشريعية وتنفيذية لها رصيدها وتجاربها الثرية ، كما أنه شهد تجربة ليبراليَّة تحمل بشائر طيبة للمستقبل تساندها صحافة وأحزاب ومناخ ثقافي يجعل من مصر تجربة رائدة بكل المقاييس في هذا الزمن.

ووجد ثوار يوليو أنفسهم ذات ليلة يحكمون أقدم دول العالم تاريخاً ، وأكبر دولة عربية وواحدة من الدول المحوريَّة بكل ثقلها السياسي إقليميّاً وعالميّاً وبجانب هذا كله فإن هذه الدولة كانت تعيش تجربة حضاريَّة متفردة عن المنطقة كلها منذ ما يقرب من قرن من الزمان اقتربت فيها من روح العصر بكل نماذجه الحضاريَّة ابتداءً بدار الأبرا وانتهاءً بجامعة القاهرة مع جيش عصري متطور ، وحياة ثقافية رفيعة في فنونها ، راقية في أذواقها ، مترفعة في غايتها ، ومع الثراء الحضاري في الدولة بكل مؤسساتها كانت التجارب والخبرات المحدودة في سلطة القرار (لدى لجنة قيادة الثورة، ومن آل الحكم إليه) .

ومن هنا كان هذا التحدي الصارخ من سلطة القرار ورفضه الشديد لكل مقوِّمات الدولة دون مراعاة لما ينبغي أن يبقى ، وما يجب أن يزول ، وبدت الرغبة في التغيير في بعض الأحيان رغبة في تدمير كل شيء ابتداءً بالناس ، وانتهاءً بالأشياء، ولعل

([1]) د لويس عوض " أقنعة الناصرية السبعة " مرجع سابق ص ١٦٨ – ١٧٠ .

السبب في ذلك كله غياب الجانب الفكري في بدايات الثورة مما جعلها تتعامل مع الأحداث والمواقف بصورة عشوائية في أحيان كثيرة ينقصها الفهم والوعي والحكمة .

وكانت الأدلَّة التي تثبت هذا الاستنتاج كثيرة :

سقطت أجيال كاملة أبعدتها الثورة تماماً رغم أنها قدمت عطاء سخيّاً لهذا الوطن في مجالات الحياة ، وإذا كان هذا الإجراء له ما يبرره في العمل السياسي ، فماذا يُقال عن مجالات أخرى في الاقتصاد ، والعمل العام ، والأجهزة الإداريَّة ؟

وتم استبعاد هذه الأجيال وهي في كامل لياقتها الذهنيَّة والفكريَّة وقدرتها على العطاء ، وفرضت ظروف إبعاد هؤلاء أن تحل محلهم وجوه جديدة وللأسف أن هذه الوجوه التي سميت في ذلك الوقت أهل الثقة ، كان الكثيرون منهم يفتقدون القدرات والمواهب مما جعلهم عبئاً على العمل العام ، وهنا انتشرت جيوش أهل الثقة وتم استبعاد أهل الخبرة ، وشملت المحاكمات آلاف البشر وطالت الأبرياء وغير الأبرياء ولهذا يخطئ من يتصور أن التغيير هو بالضرورة نحو الأفضل إنه في أحيان كثيرة يحملنا للوراء .

تم تخريب تراث مصر وقصورها وبيوت أثريائها في هجمة شرسة لا أحد يعرف حتى الآن أين ذهبت ، وإلى أي الأطراف تسربت .. وقامت لجان الحراسات والمصادرة بأكبر عملية نهب لتراث مصر في فترة كان كل شيء فيها قد اختفى ، حدث هذا في مصر أم الدنيا بينما بقيت كل ثروات روسيا حتى الآن رغم أن ثورة يوليو كانت بيضاء ، وكانت ثورة روسيا بلون الدم .

كان أخطر الإجراءات التي شهدتها البلاد في أيام الثورة الأولى هو إغلاق أبواب الديمقراطيَّة ، وهو أخطر إجراء في تاريخ مصر الحديث حيث جاءت بعده توابع كثيرة ابتداءً بانتهاك حقوق الإنسان المصري ، وانتهاءً باستباحة ممتلكات الناس مروراً على مصادرة كل شيء ابتداءً بالفكر وانتهاء بالممتلكات .

كان الخلاف حول قضية الديمقراطية في مصر هو بداية الانقسام الحاد بين الثوار، ولو أن أنصار الديمقراطية (ويمثلهم محمد نجيب وخالد محيي الدين ويوسف صديق) في هذا الانقسام انتصروا لكان لمصر شأن آخر في ظل تجربة ديمقراطيَّة كانت تستحقها بجدارة .

لا نستطيع أن نسقط صدق نيات الضباط الأحرار عندما قاموا بثورة يوليو من حيث الأهداف والغاية، ولكن ما حدث بعد ذلك كان مجرد صراع على السلطة سرعان ما ألقى بنا إلى متاهات مراكز القوى والنفوذ والسجون، والمعتقلات والاتحاد الاشتراكي حيناً والقومي حيناً آخر والانتهازيين في كل الأحيان.

النقطة الثانية التي يتوقف عندها الإنسان وهو يتأمل الأحداث ويقرأ الشواهد أن المصادفة لعبت دوراً كبيراً في نجاح ثورة يوليو ، ولولا الساعتان اللتان سبق بهما يوسف صديق زملاءه (١) واستولى على قيادة الجيش لكانت هناك أحداث أخرى ، ساعتان من الزمن غيرتا مسيرة الزمن والتاريخ .

أما النقطة الأخيرة التي توقفت عندها محاولاً رصدها من البداية فهي قصة الصراع على السلطة ، ويبدوا أنه يبدأ مبكراً ومع الساعات الأولى لنجاح الثورة .

ولهذا كان من الضروري أن يختفي محمد نجيب بكل ما وصل إليه من شعبيَّة في الشارع المصري ، وقصة اختفاء نجيب مازالت حتى الآن مثار شكوك كثيرة لأن الرجل لم يستحق كل هذا الذي لحق به وأصابه ابتداء بخروجه من السلطة وانتهاءً بما تعرض له بعد ذلك .

وكان من الضروري أن يختفي خالد محيي الدين ، ويوسف صديق لأنهما أصحاب فكر ، ولم تكن أوليات الثورة تعطي أهمية كبيرة لهذا الجانب ، وإن بقيت بعد ذلك تضعه في آخر القائمة .

ثم اختفى البغدادي ، وكمال الدين حسين ، وفي مرحلة لاحقة اختفى زكريا محيي الدين ، ولم يكن في الساحة غير أنور السادات وعبد الحكيم عامر ، وانتهت قصة عامر مع نكسة ٦٧ ليرث أنور السادات ثورة يوليو كلها رغم أنه كان أبعد الثوار عن مناطق الصراع ، وربما كان ذلك تأكيداً لذكائه الشديد .

---

(1) الحقيقة أنها ساعة واحدة وليست ساعتين فقد كانت ساعة الصفر الثانية عشر ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن يوسف صديق أخطأ وخرج بقواته الساعة الحادية عشرة ، ولقد أنقذ هذا الخطأ ثورة يوليو فتمَّ القبض على القيادات العسكرية قبل أن تأمر بالقبض على الضباط الأحرار وقد عرفت أسماءهم (المؤلف) .

حيث بقي حياته تقريباً بعيداً عن مرمى نيران الصراع بين رفاق السلاح حتى جاءته الفرصة مع رحيل عبد الناصر .

من هنا يمكن أن يُقال إن الثورة أكلت أبناءها واحداً واحداً .

اجتمعوا في البداية على محمد نجيب وشاركوا في عزله ، ثم بعد ذلك كان مسلسل سقوط الآخرين ، ولم يتعلم أحد منهم الحكمة من رأس الذئب الطائر." (١)

ويلاحظ أن جويدة يحرص على عدم ذكر اسم عبد الناصر في حديثه عن الصراع على السلطة ، ونسبة أخطاء حكم عبد الناصر للثورة وذلك يرجع لسببين في رأيي :

السبب الأول : الهجمة الشرسة التي واجهها فاروق جويدة عندما بدأ يفتح ملفات ثورة يوليو عام ١٩٩٩ من أهل ثقة عبد الناصر ، والجهلة بحقائق الأمور .

والسبب الثاني : هو حب جويدة لعبد الناصر فهو من ذلك الجيل الذي نشأ وترعرع في ظل النظام الشمولي الذي لم يروا فيه صورة لزعيم إلا عبد الناصر ولم يسمعوا فيه إلا التغني بأمجاده ، ولم يدرسوا من تاريخ العظماء في العصر الحديث إلا سيرة الزعيم الخالد .

والعجيب أن عبد الناصر هو العامل المشترك الوحيد في كل صراع على السلطة، فهو الذي دبَّر مؤامرة إضراب عمال النقل التي نفذها طعيمة والطحاوي والصاوي ؛ ليطيح بمحمد نجيب الرئيس الذي كسب للثورة تأييد العسكريين والمدنيين وقبل فاروق أن يتنازل له عن الحكم ويرحل ، كما أن عبد الناصر هو الذي تخلَّص من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة المؤيدين لنجيب والمعارضين له بمساعدة عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، والذي خاض معه صراعاً على السلطة بدأ عام ١٩٦٢ وانتهى بنكسة يوليو ورحيل عبد الحكيم .

شهادة جمال حمدان

شهادة د. جمال حمدان على ثورة يوليو ورجالها : " بعد عصر المَلَكيَّة انتقلت مصر المعاصرة بدرجة أو بأخرى إلى النموذج الشرقي الاشتراكي الشمولي بنظام حزبه الواحد الديكتاتوري المطلق . سواء كنَّا اشتراكيين بالفعل كما جادل البعض ، أو انتقلنا

(١) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ٨٩ – ٩٤ .

من الإقطاع عبر مرحلة شبه اشتراكيَّة إلى الرأسماليَّة كما نظر البعض الآخر ، فالواضح أن مصر المعاصرة ، بينما استبقت جوهر النظام الاقتصادي الاجتماعي الطبقي بعد تطويره مع روح العصر نفسه قد أخذت من الاشتراكيَّة الاسم والواجهة أولاً وشكلاً ثمَّ مبرر الطغيان والحكم المطلق والشموليَّة ثانياً وأساساً.

ذلك أن من المؤسف أن النظام الذي ما قام إلا ليحقق للشعب العزَّة والكرامة التي حُرِم منها طوال تاريخه ، وكان شعاره التقليدي " ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد " لم يُحَقِّق إلا عكس الشعار تماماً من الناحية العمليَّة . إذ لم يلبث أن انحرف ودخل في " عهد إرهاب " حقيقي ، فتورَّط في المصادرات والحراسات والاعتقالات بل والتعذيب بالجملة ، وتحوَّل بالتدريج إلى القهر والكبت والقمع وتنميط وقَوْلَبَة الفكر والعمل السياسي وَوَأْد الرأي الحر أو المعرض " بتجييش " الشعب كقطيع سياسي ، وذلك في تنظيم سياسي أحادي حديدي تحت اسم " وحدة قوى الشعب العاملة " أو تحت كنف ما سمي " كبير العائلة " المزعوم ولكن في الحقيقة لمصلحة قوى الحكم المسيطرة أو العميلة .

وفي إطار (أم إسار ؟) هذا القفص الحديدي الذي لم يسمح قط بالرأي الآخر أو المعارضة ، ثم " تعقيم " الشعب سياسيّاً ، فبينما لم يكن للشعب أي حق – رغم الشكل البرلماني الزائف – في النظام الإقطاعي قبل " الثورة " إلا حق المتفرج ، أصبح للشعب في ظل هذه " الثورة " الحق في أن يقول " نعم " وذلك كما وضعها ، ولكن بجدية تامة ، أحد الساخرين .

وهكذا تلخص التحوُّل الجديد في معادلة محددة ولكنها محزنة وهي : من دولة بوليسية " وسيطة " تحكمها الشرطة إلى دولة بوليسية " عصريَّة " يحكمها الجيش ، أو من مَلَكيَّة بوليسية إلى جمهورية عسكريَّة ، أو أخيراً من إقطاع مدني إلى إقطاع عسكري وبعبارة أخرى . فكما شخَّص بعض منظري العهد فيما بعد ، انتقلت مصر من " أوتوقراطية " (حكم الفرد) المَلَكيَّة إلى " مونوقراطية " (الديكتاتورية) الجمهورية في حين اختزل البعض الآخر الوضع كله في أنه مزيج من الفرعونية الجديدة والمملوكية الجديدة .

بل سرعان ما ظهرت أعراض عريضة وميول جامحة جانحة من مظاهر المَلَكيَّة بل والإمبراطورية ، كأنما هي مَلَكيَّة مؤقتة غير وراثيَّة غير مدنيَّة ، أي باختصار مَلَكيَّة مُقَنَّعَة . فهذا ، مثلاً ، تكاد تقول أول " إمبراطور جمهوري " وهذا أول " ملك جمهوري " وهذا .. وهذا .. إلى آخره ، وتلك جميعاً هي بكل وضوح أعراض وأمراض الحكم المطلق وحكم الفرد . " (١)

شهادة رشاد رشدي

وإليكم الآن شهادة الأديب الكبير رشاد رشدي عن سياسة الحكم في عهد جمال عبد الناصر : " جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ . وهنا طرأت على الحياة المصريَّة ظاهرة جديدة . فقد حلَّ الوهم على الحقيقة والجهل محل العلم ، أنا لا أتكلم عن إنجازات وسلبيات ثورة يوليو وإنما أتكلم عن ما هو أهم وأخطر . وهو المسار الجديد الذي سارت هذه الثورة فيه بالذات المصرية ، ماذا أسميه ؟ طريق التعمية ؟ طريق الأقنعة ؟ الطريق الذي يؤدى إلى لا طريق ؟ ربما كانت أفضل التسميات هي طريق الأوهام ولا أقول الأحلام . فهناك فرق بين الحلم والوهم . الأول قد يؤدى إلى تحقيق الذات . أما الثاني فيؤدى بالضرورة إلى ضياع الذات ... وهذا ما فعلته ثورة يوليو بالذات المصريَّة خلال عمرها الذي دام ثمانية عشر عاماً ...

فقد أوهمت الإنسان المصري بأنه يسمع ويعيش ويرى مالا وجود له في الحقيقة وكانت النتيجة أن تاهت الذات المصرية كما يتوه المسافر في الصحراء عندما يكون رائده الوحيد هو السراب . ومع ذلك يؤكد له من يقوده أن السراب ليس خداع نظر بل حقيقة لا شك فيها .

الأمثلة كثيرة لا أعرف ماذا أختار منها وماذا أترك ؟ كانت هناك في الأول هيئة التحرير ثم الإتحاد القومي ثم الإتحاد الاشتراكي وكلها أجهزة صنعها النظام لتسانده وتحميه أي أجهزة قمع ووصاية على الناس. ومع ذلك كانوا يقولون لنا إن هذه الأجهزة التي لم يتدخل الشعب في اختيار أفرادها أو حتى في قبولها أو رفضها إنما هي بدائل

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

للأحزاب بل إنها أفضل ما وصلت إليه عبقرية القرن العشرين في نظم الحكم الديمقراطي .

وكانت القوات المسلحة الباسلة تصاب بالهزائم الواحدة بعد الأخرى ومع ذلك كانوا يصورون للناس أن كل هزيمة من هذه الهزائم إنما هي في الواقع انتصار رائع وكنا نشك أحياناً ونصدق ما يقولون في أغلب الأحيان . فمن أين لنا أن نميز الحقيقة من الوهم . وكيف يتأتى لنا – وهذه هي الحال – أن نعرف من المسئول عن هذه الهزائم أو الانتصارات وكانوا يقولون لنا إننا قد تخلصنا من الاستعمار البريطاني وهذا صحيح وبذلك لم تعد لأية جهة أجنبيَّة أيَّة سيطرة على إرادتنا ولكنهم لم يكشفوا لنا أبداً عن المدى التي كانت فيه هذه الإرادة مرهونة بما يقرره الكرملين في موسكو .

وكانت عندنا اشتراكيَّة – هكذا كانوا يقولون – والاشتراكيَّة في جوهرها هي تكافؤ الفرص ولكن الفرص كانت فقط لعملاء النظام من التنظيم الطليعي وغيره من التنظيمات التي تضم أهل الثقة وتفضلهم على أهل الخبرة لا لسبب سوى أنهم يدينون بالولاء – لمصر – بل لمراكز القوى التي تسخرهم لبلوغ أغراضها . وكانت حرية الفرد مكفولة – هكذا كانوا يقولون – ولكن ما لم يقله أحد هو أن هذه الحرية كانت مكفولة بشرط وهو أن يصبح الإنسان كتمثال القرد الذي كانوا يضعونه على مكاتبهم الرسمية أعمى أصم أبكم أو يصبح في السجن لا لشيء سوى أن الجهاز البوليسي كان دائم الحرص على أن يوهم الحاكم أن هناك مؤامرة وإلا فمن أين يستمد هذا الجهاز سلطاته أو بماذا يبرر وجوده ؟ وكانت عندنا محاكم ومحاكمات – أي سيادة القانون هكذا كانوا يقولون – ولكن كانت الأحكام تصدر مقدماً – أي قبل المحاكمة – وعندما تنتهي مدة الحكم ويخرج السجين إلى ا لنور كانت تتلقفه أيدي الأجهزة البوليسية المتشعبة حيث ينقلونه إلى معتقل يظل فيه مدى حياته إلى أن يموت ... وكانت حرية الصحافة من المفاخر التي تتشدق بها مراكز القوى ولكن كان في كل دار صحيفة رقيب على الرأي بل وعلى الخبر حتى ولو كان خبراً ينشر في صفحة الوفيات مادام المتوفى شخصاً غير مرغوب فيه وكانت هناك أوهام حلَّت محل الحقائق وأقنعة لوجوه جميلة تخفى ما تحتها من قبح وبشاعة وبافطات تعلن عكس ما

تبطن . والنتيجة أن عاش الإنسان المصري تلك الفترة من حياته غريباً عن واقعة فتاه عن ذاته أو فقدها وهذا أسوأ ما يمكن أن يصيب الفرد أو الأمة ."[١]

البيان الختامي للحقبة الناصريَّة

يقول د. حمادة حسنى (أستاذ التاريخ الحديث) : " الدول الأوربيَّة أدانت وجرَّمت كل الطغاة – كان شعوبهم يصفِّقون لهم بجنون – (هتلر وموسوليني وفرانكو وتيتو وسالاز ونكروما ... القائمة طويلة) وكل من يحتفي بهم بغض النظر عما حقَّقوه من انتصارات وانجازات ونحن نحتفي بديكتاتور غوغائي لم ينتصر في حرب واحدة ...

ديكتاتور مزَّق الأعراض وشتَّت القيم وسحق الإخلاص وأبعد الدين وقهر القانون وحطَّم الرءوس وضيَّع الذمم وأفسد الشعب والجيش وغيَّر مفاهيم الناس وأخلاقهم واستخدم في ذلك أداة بسيطة الشكل عظيمة الأثر الكرباج فعبد الناصر أحكم سيطرته التامة علي كل مؤسسات الدولة وسلطاتها (السلطة التنفيذية ..الحكومة والسلطة التشريعيَّة.. البرلمان والتنظيمات السياسيَّة الهلاميَّة بدأ من هيئة التحرير (١٩٥٣–١٩٥٧) والاتحاد القومي (١٩٥٧–١٩٦١) والاتحاد الاشتراكي (١٩٦٢–١٩٧٦) والتنظيم الطليعي (١٩٦٣–١٩٧٠) ومنظمة الشباب والشرطة والجيش ...لم يبق إمامة إلا القضاء الذي اخترقه في البداية من خلال التنظيم الطليعي إلا أن الأغلبيَّة الساحقة من رجال القضاء لم يغريهم ذهب المعز ولم يرهبهم سيفه ...فدبَّر لهم مذبحة القضاء (١٩٦٩) بعد أن رفضوا الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي .

فعبد الناصر هو السبب الأساسي في حدوث الهيمنة الأمريكيَّة والصهيونيَّة على المنطقة فحكمه تميز بغياب مقوَّمات الدولة المدنيَّة وعلى رأسها احترام القانون واحترام حقوق الإنسان فالاعتقالات العشوائيَّة كانت تقوم على الشبهة وتقارير أعضاء التنظيم الطليعي ٠٠ وكذلك المحاكمات الصوريَّة وتحويل نصف المجتمع جاسوساً على النصف الآخر الأمر الذي أشاع الخوف في قلوب الشعب ومثقفيه هذا بالإضافة إلى

([1]) د. رشاد رشدي جريدة الأهرام بتاريخ ٩/ ٥ / ١٩٧٩.

عمليات التعذيب الجماعيَّة التي تعرض لها سجناء الرأي والتي لم تعرفها معسكرات النازي ، عبد الناصر مسئول عن كل ما جرى من انتهاك حقوق الإنسان والزج بعلماء مصر ومفكريها في السجون وتسليط زبانيته عليهم وهي مسئولية يتحملها أمام الله والتاريخ فالنظم الديكتاتوريَّة ليست نظم وطنيَّة بأي حال من الأحوال .

وفى كل عصور الانحطاط التي مرت بها البشريَّة شهد الإنسان ألوان من التعذيب والاضطهاد لأسباب دينيَّة أو سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو فكريَّة ولكنة لم يشهد أبداً تعذيباً بدون سبب إلا لشهوة التعذيب إلا في عصر عبد الناصر وكل ذلك وصمة عار لعبد الناصر وعصره فقد كانت الجريمة لا تستهدف فقط من هم خلف الجدران لكنة الإنسان في مصر .

قال تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" .

فلم يقتصر الأمر على هذه المظالم والتي هي في تقديرنا سبب الهيمنة فحُكْم عبد الناصر بالجملة كان كارثة على مصر وعلى جميع القضايا القوميَّة التي تناولها فقد تناول قضية وحدة وادي النيل وانتهت بانفصال السودان عن مصر والملك فاروق حافظ تماماً على وحدة مصر والسودان بل إن النحاس باشا كان يعلن في وجهه الإنجليز تقطع يدي ولا تفصل مصر عن السودان وتناول عبد الناصر قضية الوحدة المصريَّة السوريَّة فانتهت بانفصال سوريا عن مصر وتدخل في اليمن فسجن الثوار اليمنيين في السجن الحربي بالقاهرة وتسبب في قتل ١٠٠ ألف يمنى ٢٤ ألف جندي مصري (قتيل وجريح ومفقود) وتناول قضية تأميم شركة قناة السويس فانتهت باحتلال إسرائيل سيناء وخروجها منها بثمن باهظ هو فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية ومقتل ٥٠٠٠ ضابط وجندي وضياع صفقة الأسلحة التشيكيَّة تناول القضيَّة الفلسطينيَّة عندما كانت إسرائيل تحتل نصف فلسطين فانتهت باحتلال إسرائيل النصف الآخر من فلسطين ومعه غزة والجولان وجنوب لبنان وسيناء ومات عشرين ألف جندي مصري ولولا حرب أكتوبر ومبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات لكانت سيناء محتلَّة حتى اليوم ولكن بفضل جهاز الدعاية الناصري الذي كان يقوده الدَّجال تحوَّلت كل هذه الهزائم إلى انتصارات وقد كانت هذه الانتصارات

الموهومة هي التي يتركز عليها الناصريين وباقي فلول اليسار حتى بعد أن عرف الشعب المصري والعربي حقيقتها وأصبح يدفع ثمنها غاليًا ٠

وعند وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ كانت معظم القري المصرية لم تدخلها الكهرباء ولا مياه الشرب النقية والصرف الصحي وأغلب مساكن القري من الطوب اللبن لأن عبد الناصر صرف أموال طائلة علي صناعة مجده الشخصي الزائف وحروبه الخاسرة ولم تكن التنمية البشريَّة هي الهدف فكل مشاريع عبد الناصر (المصانع والسد العالي والمنشآت الأخرى) لم تتكلف أكثر من مليار جنية وصرف علي حروبه أكثر من ١٠مليار جنية بالإضافة إلى ٦٥ ألف جندي قتلوا في حروبه ولو صرف مليار واحد(بأسعار زمان) لحل مشكلة الصرف الصحي بالقرى ، وفى عهد عبد الناصر تم استيراد القمح لأول مرة من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت مصر مصدِّرة للقمح والقطن والمنسوجات في العصر الملكي والمدهش وهذا تاريخ عبد الناصر أن ترى من أنصاره جرأة عجيبة على أن يتحدثوا في المسائل العامة التي أفسدها هو منذ عام ١٩٥٤ . ولكن على أية حال فليس ذلك بمستغرب علي سيادتها وقد نشأت في جو سياسي كان يتاجر بالحروب الخاسرة ثم يملأ الدنيا بأننا انتصرنا والأناشيد والخطب النثرية ثم لا شيء بعد ذلك"

الجانب الروحي في السياسة الناصرية

قلنا أن الحضارة لها جانبان : مادي ، ومعنوي ، أو مدنيَّة (اقتصادية وعمرانية)، وثقافيَّة (دينية وأخلاقية) . وعرفنا من شهادات المفكرين عدم قيام ثورة يوليو بمدنيَّة حقيقيَّة بل قضت على النهضتين السابقتين عليها : نهضة محمد علي ، والحقبة الليبراليَّة . فماذا عن الجانب الديني والأخلاقي في نظام عبد الناصر ؟

كان عبد الناصر عضواً في التنظيم الخاص للإخوان المسلمين وأنه أقسم على المصحف والسيف على فداء الدعوة الإسلاميَّة وعدم إفشاء أسرارها ، وأنه تعهَّد لجماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة أنه إذا وصل إلى الحكم فإنه سيعمل بكتاب الله وسنة رسوله فعندما قال حسين حمودة (عضو جماعة الإخوان المسلمين ، وأحد الضباط الأحرار الأوائل) لجمال عبد الناصر إننا انضممنا للإخوان على أساس مبادئهم التي اقتنعنا بها وهي أن يكون الحكم بكتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ فرد عليه

جمال عبد الناصر : " اطمئن من هذه الناحية فما دام زمام الأمور سيكون في يدنا فسوف نحكم بالقرآن الكريم إن وفقنا الله في الاستيلاء على السلطة في مصر"(١)

وفي ذكرى وفاة حسن البنا في فبراير عام ١٩٥٤ قال عبد الناصر "نعم أذكر في هذا الوقت، وفي مثل هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقي مع الجميع ليعمل الجميع في سبيل المبادئ العالية والأهداف السامية، لا في سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا .. وأُشهد الله أنني أعمل –إن كنت أعمل– لتنفيذ هذه المبادئ، وأفنى فيها وأجاهد في سبيلها".(٢)

ولقد صرَّح عبد الناصر في بعض خطبه أنه ليس شيوعيّاً وأنه يصلي ويصوم.

ومع ذلك كله فقد رمى بعض الإخوان المسلمين عبد الناصر بالكفر من جراء ما رأوه من تعذيب في السجون والمعتقلات ، وسارع مرشدهم حسن الهضيبي بتأليف كتاب " دعاة لا قضاة " ليذِّكر هؤلاء الناس بأن مهمَّة جماعة الإخوان المسلمين هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأنهم ليسوا قضاة كي يحكموا على عقائد الناس ، وتساءل بعض الناس هل كان عبد الناصر ماركسيّاً ؟ بعد أن أصدر عبد الناصر الميثاق ، وطبقَّ قوانين الاشتراكيَّة وولَّى الماركسيين أجهزة الدولة في الإعلام والثقافة والصحافة . وردَّ عليهم حسنين هيكل بأن عبد الناصر كان متديناً ولم يكن يوماً ماركسيّاً .

وبَلَـغَ عبد الناصر أن حسن التهامي صديقه ومدير مكتبه بعد الثورة يتهمه بالشيوعيَّة، وفي أحد لقاءاتهما نفى حسن التهامي هذا الاتهام، ودونك ما جرى بينهما من حوار يرويه حسن التهامي.

" قال عبد الناصر : أنت تقول عني أني شيوعي !!

فقلت له : وهل أنت تعرف نفسك شيوعي .. أنا في نظري جمال عبد الناصر هو جمال عبد الناصر لا شيوعي فقط ولا إخوانجي فقط ولا رأسمالي ولا غربي ولا شرقي

---

(1) حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار و الإخوان المسلمون " الزهراء للإعلام العربي ص ٧٤ ، ٧٥ .
(2) كلمة عبد الناصر في ذكرى وفاة حسن البنا نقلاً عن مجلة "التحرير" الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٦ العدد"٤٤" وهي إحدى صحف الثورة .

أنت لا تعرف إلا نفسك ولا ترى في المرآة إلا جمال نفسه وأنا أسألك من الذي يقال ذلك عني كذباً ؟ " (1)

والحقيقة أنه ليس في إمكان بشر التفتيش عن عقائد الناس ورميهم بالكفر أو الإيمان فهذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وإن من واجب الباحثين صرف همهم عن التفتيش عن عقائد الحكَّام إلى مناقشة سياستهم ، وهذا ما التزمنا به في هذا الكتاب وغيره من مؤلفاتنا .

فإذا كان عبد الناصر قد حلَّ جماعة الإخوان المسلمين وقبض على كل المنتمين إليها فلم يكن هذا محاربة للدين إنما استئثاراً بالسلطة ؛ فقد قبض قبل ذلك على من نزاعه السلطة أو عارضه في حكم فضرب مجموعة المدفعيَّة وشتت ضباطها وألقى بزعمائها في السجن في ١٥ يناير ١٩٥٣ كما ضرب مجموعة سلاح الفرسان في أعقاب أحداث فبراير ومارس ١٩٥٤ وانتهى الأمر بإلقاء طائفة من أبرز الضباط الأحرار بسلاح الفرسان في السجن ونقل طائفة أخرى منهم إلى وظائف مدنيَّة وإبعاد الباقين عن سلاح الفرسان . كما أطاح بكل القوى السياسيَّة وحلَّ جميع الأحزاب السياسيَّة وصادر جميع أموالها .

ونكتفي في بحث الجانب الروحي في السياسة الناصريَّة بما كتبه أحمد طعيمة في رسالته لعبد الناصر (2) : " سيدي الرئيس : لا أستطيع أن أمسَّ الموقف السياسي والاقتصادي أي الجانب المادي من حياة مجتمعنا دون أن أمس الجانب الروحي .

إن المتتبع لتاريخ مصر منذ عهد الفراعنة لتصيبه الدهشة فأثار مصر الفرعونيَّة منذ آلاف السنين لا تجد بينها إلا معبداً أو مقبرة في الوقت الذي لا نعثر على قصر واحد من قصور الملوك والأمراء فهي إما معبد يعبدون فيه الله أو الآلهة أيّاً كانت ، ومقبرة

---

(1) من حوار محمد الطويل مع حسن التهامي وقد ذكره محمد الطويل في كتابه " لعبة الأمم وعبد الناصر " المكتب المصري الحديث .

(2) بعد هزيمة يونيو طلب عبد الناصر من صديقه العزيز الوفي أحمد طعيمة أن يكتب له رسالة يوضح لها فيها أسباب الهزيمة وكيفية الخروج من الكارثة التي حلَّت بالبلاد فكتب له طعيمة رسالة طويلة حلَّل فيها أسباب النكسة السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية .

ينتظرون فيها البعث ليبدءوا حياتهم الأخرى ولم يتهموا إطلاقاً بترك أثر من آثار حياتهم الدنيوية إلا ما عثر عليه في مقابرهم لاستخدامهم بعد البعث في حياتهم الأبدية الخالدة ، فشعب مصر منذ وجد شعب فُطِر على الدين أي دين يصل إلى الله.

ثم كانت مصر أرضاً مقدسة للأديان السماوية الثلاثة فتأصَّلت فيها العقيدة وأصبحت تجري في دماء شعبها وتنساب في روحه جيلاً بعد جيل لا ينال منها مستعمر أو دخيل أو عدو لم تكن هزيمة التتار والصليبيين على يد المصريين إلا دفاعاً عن العقيدة والدين وانتصار كلمة الله .

وشعب مصر شعب طيب وذكي بالفطرة يعرف كيف يواجه ويقاوم وله أسلوب فريد مكنه على مر الأيام أن يهضم حضارات وأفكار فرضت عليه في بعض فترات التاريخ ولكنه كان يخرج منها دائماً كما هو مصريّاً في كل شيء وفي عقيدته .

وحينما أعلنتم في خطابكم التاريخي يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ضرورة التمسك بأهداف الدين صفق الحاضرون والغائبون من الأعماق تصفيقاً اعتقد أنكم لمستم معناه لأنه لم يسبق له مثيل أو تعقيب على أي فقرة من خطابكم في هذا اليوم .

فقد مرَّت على الشعب المصري فترة من الوقت خُيِّل إليه أن الدولة تتجه بعيداً عن الدين في طريق الشيوعية ، وكانوا لا يستطيعون مقاومة هذا الاتجاه لأنهم لا يملكون وسائل المقاومة له المباشرة .

ولقد قلت لسيادتكم في لقائي معكم يوم ٣٠ أبريل عام ١٩٦٥ أن الشعب مستعد للتضحية بدمه وحياته وماله ، مستعد للجوع والعري في سبيل دينه ووطنه ولكنه غير مستعد أن يتغاضى أو يغفر خطأً تافهاً جداً للحكومة ، أو يسكت عن نقص سلعة تموينية واحدة ولو لبعض الوقت طالما أنه يشعر أنه يجر إلى الشيوعيَّة جرّاً.

ولقد كان هذا هو أسلوب الشعب في المقاومة الذكيَّة دون أن يفصح عمَّا في نفسه؛ فقد أصبح وأمسى فرأى أجهزة الإعلام والثقافة والصحافة وقد وُضِعَت في أيدي

خريجي السجون والمعتقلات من الشيوعيين الذين كانوا يجاهرون بالإلحاد والدعوة له وسب الإسلام كمقال محمد عودة في صحيفة الجمهوريَّة .

وقد علَّل الشعب نكسة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ كما أوضحتم سيادتكم في خطاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ بأن الله أرادها درساً لنا يعلمنا ما لم نكن قد تعلمانه، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون قد نسيناه . وبأننا نسينا الله فأنسانا أنفسنا وأمكن منا إسرائيل .

ويروى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أوصى جيشاً بعث به إلى بلاد الروم وكان جيش الروم أضعافاً مضاعفة لجيش المسلمين في العدة والعدد فقال لهم : " احرصوا على رضاء الله وذكْره والتمسك بدينه وإلا كنتم والروم أمام الله سواء وتكون الغلبة للعدد والعدة للروم . "

هذا هو رأي الإسلام وهو رد واضح على تشكيك البعض بعد النكسة .

أليس الله مع المسلمين وعلى اليهود ؟

ألسنا على الحق وهم على الباطل؟

إذاً كيف كان الله مع إسرائيل ضدنا في هذه المعركة ؟

والحقيقة الإسلامية المجرَّدة إن الله لم يكن مع إسرائيل ، ولكنه أيضاً لم يكن معنا؛ إذ يقول الله تعالى { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } وعن الرسول صلى الله عليه وسلم عن بن مسعود رضي الله عنه قال : " وما نزل البلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة " .

لهذا أرجو يا سيادة الرئيس وألحُّ في الرجاء لوجه الله والوطن أن كنتم تريدون نهضة حقيقية لهذا الشعب وترجون نصراً من الله قريباً بإذن الله أن نفكِّر في الآتي:

١- أن يعتبر الدين الإسلامي مادة أساسيَّة في جميع مراحل التعليم حتى التعليم الجامعي.

٢- أن تشكِّلوا بجانبكم لجنة للدراسات الإسلاميَّة لتزودكم بأعظم نبع للتشريع في العالم من سير الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أئمة الإسلام على أن يكونوا صفوة من الرجال الممتازين من رجال الدين والعلم والقانون .

٣- يجب تطهير جميع أجهزة الدولة في الإعلام والثقافة والصحافة من الشيوعيين البارزين فليس من المعقول أن يتصدر هؤلاء هذه المراكز في دولة دينها الإسلام ورئيسها جمال عبد الناصر ويتولى أمر الفكر والتوجيه لجموع الشعب المؤمن المسلم الذي يعلم أنهم ملحدون من خريجي السجون والمعتقلات.

وتنعكس هذه الصورة على الدولة بأكملها فتوصم بالشيوعية في الداخل والخارج دون مغنم إلا مغارم كثيرة تفوق الوصف والخيال في حساب الله وحساب الناس "[1]

الحقبة الناصريَّة وتغير السمات الأصليَّة في الشخصيَّة المصريَّة

لقد غيَّرت الحقبة الناصريَّة في السمات الأصليَّة في الشخصيَّة المصريَّة هذه التغيرات أدَّت إلى تراجع مشروع النهضة العلميَّة والثقافيَّة الذي وضع أسسه رواد النهضة في النصف الأول من القرن العشرين .

إن النظام الديكتاتوري لم يخرج لنا مبدعين حقيقيين ، فالإبداع خصم دائماً للدكتاتورية، وأن كلَّ المبدعين ظهروا في الفترة الليبراليَّة أما من نبغوا في تخصصاتهم العلميَّة والمهنيَّة بعد عام ١٩٥٢، فيرجع ذلك إلى مجهودهم الشخصي، والتحاقهم بعد ذلك بالغرب الأوروبي، وليس إلى النظام التعليمي الذي جاء بعد عام ١٩٥٢.

كما أن أغلب المعتقلين، وهم بالآلاف، في سجون ناصر من خريجي الجامعات، وآلاف مثلهم هربوا من مصر لدول الخليج، في وقت كانت نسبة الأمية ٨٤%، وكأن عبد الناصر أصبح زعيماً على شعب " ما بيفكش الخط " .. الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ بكلية الهندسة كان معتقلاً في سجن الواحات وقت بناء السد العالي، والروس واجهوا مشاكل هندسية في هيكل السد العالي.. فحاولوا الاستعانة بالخبرة الأمريكية، واتصلوا بهم، فأخبرهم الأمريكان أن هناك أستاذاً مرموقاً في مصر اسمه

([1]) لمزيد من التفاصيل راجع خطاب أحمد طعيمة لعبد الناصر المكتوب في كتاب " شهادة حق " الجزء الخاص بالدين ص ٣٧ – ٤٢ .

حسين كمال الدين، فأخبر الروس عبد الناصر وتم إخراجه من المعتقل، وأصلح المطلوب، وأرجعه عبد الناصر مرة أخرى للمعتقل ! " [١]

ولقد رصد د. محمد المهدي عدداً من العوامل الرئيسة التي أدَّت إلى تغيرات في السمات الأصليَّة للشخصيَّة المصريَّة في تلك المرحلة منها :

١- ثورة يوليو وما صاحبها من تغييرات جذرية (بعضها ايجابي وهو ما يتصل بالتحرر الوطني وطرد المستعمر , وأكثرها سلبي وهو ما يتصل بالحكم الاستبدادي البوليسي) أدَّت إلى تغيرات في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وهُزَّت البنية القيميَّة حيث أشاعت قيماً استبداديَّة قهريَّة ، وأرست قواعد الاعتماديَّة على النظام ، والسلبيَّة ، والفهلوة ، وادِّعاءات البطولة الزائفة ، والسير وراء الزعيم بأعين مغمضة وأصوات هاتفة وقلوب مليئة بالحماس الجارف بلا دليل . باختصار أحدثت الثورة ورجالها تناقضات هائلة في البنية النفسيَّة للشخصيَّة المصريَّة .

٢- نكسة يونيو ١٩٦٧ , وقد كانت قمة التعبير عن خداع الذات والتسليم لزعامات كاريزمية بعيدة عن التخطيط السليم والموضوعية . حدث بعدها صدمة وتغيرات جذرية أخرى في الشخصية المصرية حيث راحت تبحث عن هوية دينيَّة بعد فشل الهوية القوميَّة الاشتراكيَّة التي نادى بها زعماء الثورة ومنظروها ، ومن هنا بدأت التيارات الدينيَّة المعتدلة والمتطرِّفة في مصر وامتدت إلى العالم العربي والإسلامي تحت وطأة المواجهة البوليسيَّة القاسيَّة لتلك التيارات . [٢]

ولم ينته نظام عبد الناصر بموته إنما ظلَّ بعده حتى قيام ثورة ٢٥ يناير ، وإن كانت قد حدث له بعض التطورات ودخلت عليه بعض التعديلات لكنه ظلَّ في جوهره ثابت ، نعم أُصْلح حال الجيش فحقَّق انتصاراً مؤزَّراً في أكتوبر ٧٣ بعد الهزيمة المنكرة في ٦٧، ونعم حدثت إرهاصات ديمقراطيَّة وتعدديَّة حزبيَّة بعد ديكتاتوريَّة النظام واتحاده الاشتراكي ، ونعم تحوَّل النظام الاشتراكي الذي ساوى بين المصريين في القهر والفقر إلى انفتاح اقتصادي قسَّم المصريين إلى مُستغلِّين ومُستغلَّين أو "

---

(1) د. حمادة حسني " ناصر الوجه الآخر " جريدة اليوم السابع بتاريخ ٢٠ / ٩ / ٢٠٠٨ .
(2) هذه الدراسة بعنوان " الشخصية المصرية " وقد نشرها د. محمد المهدي على شبكة الإنترنت.

ناس بتكسب ولا تتعبشي وناس بتتعب ولا تكسبشي " على حد قول إسماعيل ياسين في منولوجه الشهير " متستعجبشي متستغربشي " .

نعم حدثت تغيرات ، شكليَّة ، في عصر السادات في النظام السياسي لكن ظلَّ نظام الحكم ديكتاتوريّاً وإن أحيط بديكور ديمقراطي ، وحدثت تغييرات ، جوهريَّة ، في الاقتصاد لكن لصالح رجال الأعمال ، والهلَّيبة ، والفهلويَّة لنصل إلى عصر مبارك آخر الصور المعدَّلة لنظام ثورة يوليو .

مصر في عهد مبارك

ولقد أدَّى نظام ثورة يوليو وحكم العسكر إلى ظهور أزمات سياسيَّة ، واقتصاديَّة، واجتماعيَّة وأخلاقيَّة وثقافيَّة ، ودونك أهم ما وصلت إليه حياة المصريين في نهاية حكم العسكر الذي أسسته ثورة يوليو .

١- في المجال الاقتصادي

الاقتصاديون المصريون يشكون من اختلال الهيكل الإنتاجي لصالح القطاعات غير الإنتاجية ، ومن اختلال هيكل العمالة لصالح نفس القطاعات ، ومن الاختلال المستديم في ميزانية المدفوعات ، وشدة الاعتماد على استيراد الغذاء ، ومن اختلال توزيع الدخل واتساع الفجوة بين مستويات الدخول ، ومن انخفاض معدل الادخار والاستثمار ، ومن أنماط الاستهلاك وأنماط الاستثمار : فالاستهلاك منصرف إلى سلع ترفيهيَّة على حساب إشباع الحاجات الأساسيَّة ، والاستثمار منصرف إلى قطاعات يعتبرها الاقتصاديون غير منتجة . (١)

١- في المجال الاجتماعي

وعلماء الاجتماع يشكون من شيوع ما يسمى بالفساد أو التسيب وعدم الانضباط، ومن ازدياد حوادث العنف ، وظهور نوع جديد من الجرائم ، ومن تفكك الأسرة ، ومن انتشار قيم ماديَّة تعلي من قيمة الكسب السريع على حساب العمل المنتج ، وضعف روح التعاون والتضامن الاجتماعي ، ومن تدهور نمط الحياة في المدينة والقرية على

([1]) د. جلال أمين " ماذا حدث للمصريين ؟ " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١١ .

السواء : المدينة تزداد تلوثاً وازدحاماً وضوضاء وقبحاً ، والقرية تتحول من قرية منتجة إلى قرية مستهلكة ، فالمباني السكنيَّة تزحف على الأراضي الزراعيَّة ، والأراضي الزراعيَّة يجري تجريفها وتفقد خصوبتها لإشباع حاجات استهلاكية بحتة ، كما يشكون من ازدياد تغريب الحياة الاجتماعيَّة ، سواء انعكس ذلك في أنماط السلوك اليوميَّة ، أو في اللغة المتداولة ، ومن انتشار تقديس كل ما هو أجنبي وتحقير كل ما هو وطني . (١)

٣- في المجال السياسي

والمعلِّقون السياسيون يشكون من ضعف روح الولاء والانتماء للوطن ، وانتشار اللامبالاة بالقضايا القوميَّة الكبرى ، وانشغال الناس عنها بقضايا معيشية يوميَّة ، ومن غياب ما يسمونه بالمشروع الحضاري أو القومي ، ومن التخاذل نحو اعتداءات إسرائيل المتزايدة ، ومن ضعف الاهتمام بهدف الوحدة العربيَّة ، ومن ازدياد التبعيَّة السياسيَّة للغرب ، ومن زيف الديمقراطيَّة وعجز المعارضة عن المشاركة في اتخاذ القرارات الأساسيَّة . (٢)

٤- في المجال الثقافي

ويشكو المهتمون بقضية الثقافة في مصر من شيوع ثقافة هابطة تهتم بالجنس وتستجيب للغرائز الدنيا ، ومن شيوع اللاعقلانيَّة في التفكير الديني ، واتجاه الحركات الدينيَّة إلى التمسك المفرط بطقوس وخزعبلات كانت بريئة منها في العشرينات والثلاثينات ، ومن تدهور مكانة اللغة العربيَّة ، ومن تدهور محتوى التعليم ، وانحطاط حال الجامعة ... إلخ (٣)

وبعد أن استعرضنا ما حلَّ بالشخصية المصريَّة من تغيرات ، وما حل بالمصريين من أزمات إبان حكم حسني مبارك نحاول أن نرصد أهم الأسباب المباشرة لثورة ٢٥ يناير التي قامت لتسقط آخر النظام الذي أنشأته ثورة يوليو .

---

(1) نفسه ص ١٢ .
(2) د. جلال أمين " ماذا حدث للمصريين ؟ "مرجع سابق ص ١٢.
(3) نفسه ص ١٣ .

الأسباب المباشرة لثورة ٢٥ يناير

١ـ انقطاع الأمل وانتحار الحلم

من أهم أسباب قيام ثورة يناير بل أهمها هو انقطاع أمل الشباب في صناعة مستقبل مغاير للحاضر المحبط على كافة المستويات السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة فعلى المستوى السياسي ما زال الحزب الوطني يحتكر المجالس النيابيَّة والمحليَّة والسلطة التنفيذيَّة ومنصب الرئاسة لمبارك ولابنه من بعده ولا أمل في مشاركة أي من الأحزاب أو القوى الوطنيَّة لهم في أية مسئولية لا في الأمد القريب ولا البعيد . بعد التعديلات الدستورية التي تم حياكتها في ٢٥ مارس ٢٠٠٧ التي قصرت الرئاسة على الحزب الوطني وحده ، وأقصت الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات مما ترتب عليه فتح الباب واسعاً للتزوير لصالح الحزب الوطني ورجاله وحرمان جميع القوى الوطنيَّة التي تتمتع بالكفاءة والنزاهة والإخلاص والتي تضع الجماهير فيها ثقتها – من التمثيل في مجالس : الشعب والشورى وحتى المجالس المحلية .

أما على المستوى الاقتصادي فهناك ١٦ مليوناً يقبعون تحت خط الفقر المدقع وفقاً لأرقام صادرة عن تقارير حكومية نشرت عام ٢٠٠٩ في الصحف والوسائل الإعلامية إلى جانب إحصائيات وأرقام الجهات الرسمية في مصر. (١)

وأوصدت حكومة نظيف باب العمل في وجه الشباب بعد أن أوقفت التعيين في الحكومة منذ ٢٠٠٦ ولم تفتح له مجالات عمل أخرى خارجه .

يقول اللواء أبو بكر الجندي رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء :

" نسبة البطالة في مصر وفقاً لمعايير منظمة العمل الدولية وصلت إلى ٨.٩% خلال الربع الرابع من عام ٢٠١٠، وأن نسبة البطالة في مصر بلغت٥١ % من حملة المؤهلات العليا . " (١)

---

(1) نقلا عن جريدة الشروق المصرية .

وأكد د. صفوت النحاس رئيس جهاز التنظيم والإدارة " أن عدد العاملين في الحكومة سيصل إلى ٧ ملايين بنهاية العام المالي الجاري ٢٠١١ مقابل ٦ ملايين حالياً .

وأرجع هذا إلى فتح باب التعيينات مجدداً بعد الثورة، موضحاً أن هذا خلاف ما أصدره د. أحمد نظيف رئيس الوزراء الأسبق من تعليمات واضحة وصريحة بوقف التعيينات بصورة كاملة وعدم تثبيت العمالة المؤقتة والخريجين منذ بداية ٣٠ يونيو ٢٠٠٦.

وقال "النحاس إن "نظيف" أجرى تحقيق معي بعد أن وافقت على تعيين خريجي معهد الصيارفة تطبيقا للحكم الذي حصل عليه هؤلاء الخريجون" [1]

والملايين الستة المعيَّنين في الحكومة كثير منهم يعيشون تحت خط الفقر فما يتقاضونه من جنيهات معدودة لا تفي بالحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة بالإضافة إلى الإهانة التي يتعرضون لها في طوابير العيش ، وصفوف انتظار أنابيب البوتاجاز ، وتكدس المواصلات العامة ، والحرمان شهوراً طوال من تذوق البروتينات الحيوانية كاللحوم والدواجن والأسماك ومشتقات الحليب .

فإذا جئنا إلى السكن فالغالبيَّة العظمى من المصريين إما يعيشون في مناطق عشوائيَّة في المدن الكبرى أو في قرى فقيرة والمناطق العشوائيَّة والقرى تعيش حياة غير آدميَّة فهي محرومة من أبسط حقوق الإنسان وهي : الماء النقي ، والهواء النظيف ، والطعام الآمن ، والعلاج المتاح ، والتعليم الحقيقي ، والسكن الصحي .. مما جعل هَمَّ معظم المصريين الهجرة خارج البلاد فإن لم تكن بالطرق الشرعية لجئوا إلى الطرق غير الشرعية معرضين حياتهم وأموالهم للفناء فبعضهم يفضل الموت في قاع البحر على العيش على أرض مصر !!

٢- انتخابات ٢٠١٠

---

[1] جريدة الشروق ٢٧/ ٧/ ٢٠١١.
[2] نقلاً عن وسائل الإعلام المصرية .

السبب الجوهري الأخر الذي دفع باتجاه ثورة يناير هو انتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠ التي تمت في غيبة الإشراف القضاء الكامل عليها بعد التعديلات الدستورية ٢٠٠٧ التي أقصت الإشراف القضائي عن العملية الانتخابيَّة وقد مورس في هذه الانتخابات جميع أنواع التزوير مما دعا كل الأحزاب والقوى الوطنية إلى مقاطعة جولة الإعادة بعدما تبين أن التزوير أصبح سافراً وأن ورقة التوت التي كانت تستر عورة النظام قد سقطت . أقصيت المعارضة عن هذا المجلس ولم يبق فيه إلا الحزب والوطني وعملائه .

لقد شهدت مصر في عام ٢٠١٠ م انتخابات مجلس الشورى وانتخابات مجلس الشعب، وقد شهدت تلك الانتخابات عمليات تزوير وتزييف وبلطجة وعنف و**رُشىً** انتخابية واسعة النطاق، وكان الإقبال من الناخبين ضعيفاً جداً (وإذا كانت الأرقام الرسميَّة والتصريحات الرسمية تقول عكس ذلك كالعادة منذ ستين عاماً)، وتورَّع الناس المحترمين عن الترشح في الانتخابات أو حتى التصويت لما يشوب العمليَّة الانتخابيَّة برمتها من سلوكيات تنفر الناس من المشاركة، فضلاً عن أن الجميع يعلمون أن الانتخابات في مصر نتائجها معروفة مقدماً ومحسومة للحزب الوطني بالضرورة، وأن عملية التصويت ما هي إلا ديكور سخيف وإسباغ للشرعية على ممارسات غير شرعية .

وفي الانتخابات الأخيرة تم استبعاد كل التيارات والرموز المعارضة والمستقلة حتى بدا مجلس الشعب بدون معارضة حقيقيَّة، وفقد القائمون على الانتخابات تلك الحنكة القديمة التي تميز بها من سبقهم من حبكة التزوير وإعطاء الفرصة لبعض المعارضين من باب الديكور وسد الذرائع وتحسين الصورة دوليّاً ، ويبدو أن شهيَّة الحزب الوطني انفتحت بشكل غير منضبط ليبتلع كل المقاعد غير عابئ بالصورة أو الشكل أو الديكور، وليذهب الجميع إلى الجحيم، ولقد شهد الجميع حرق واستبدال الصناديق بالجملة، وتسويد البطاقات لصالح مرشحي الحزب الوطني الحاكم ، واستبعاد الإشراف القضائي الحقيقي والمباشر لكي يتم التزوير بشكل سهل، ولكي يتم ذلك فلابد من الاستعانة بعدد كبير من البلطجية وأصحاب السوابق، وبلغ أجر

البلطجي في اليوم الواحد ألف جنيه، ووظيفته هي ترويع الناخبين والسيطرة على محيط لجنة الانتخابات وتيسير عمليات التزوير .

لذا كان طبيعيّاً أن جميع البرلمانيين السابقين من الأحزاب والإخوان المسلمين الذين أسقطهم الحزب الوطني في الانتخابات الأخيرة كانوا في مقدمة من دعا إلى التظاهر يوم ٢٥ يناير ضد النظام المستبد الفاسد ، كما تصدروا هذه المظاهرات عند اندلاعها .

٣- سيناريو التوريث

قد يسأل سائل لماذا لجأ الحزب الوطني إلى التزوير السافر لانتخابات مجلسي الشعب والشورى رغم أن المعارضة السابقة لم تَحُل دون تمرير القوانين سيئة السمعة والإجابة ببساطة أن هذا المجلس هو الذي سيمرر الحكم من الأب لابنه من مبارك لجمال فلابد أن يكون جميع أعضاء مجلس الشعب ممن يصفقون لمسرحيَّة التوريث عند عرضها وقد سبق الانتخابات المزورة التعديلات الدستورية ٢٠٠٧ التي وضعت شروطاً للترشح لمنصب رئيس الجمهورية لا تنطبق إلا على شخص واحد في جمهورية مصر العربية هو جمال مبارك .

وكانت القوى الوطنيَّة تحلم باليوم الذي تتخلص فيه من سنوات طويلة من الاستبداد والفساد ومبارك إن عاش اليوم فلن يعيش للغد وقد بلغ من العمر أرذله لكن أن يرث جمال أباه في الحكم فهذا معناه سنوات أخرى لا يعلم إلا الله مداها من احتكار الحزب الوطني للحكم وثروات البلاد .

٤- بوليسية الدولة

الأصل أن يكون نظام الحكم في خدمة نظام الدولة وجموع شعبها ، ولكن منذ استبد عبد الناصر بحكم مصر عكس الأمر إذ جعل نظام الدولة وجماهير شعبها في خدمة النظام الحاكم وجمع كل السلطة في يده وحرم كل القوى والوطنيَّة من المشاركة فيها ، واستخدم كل صنوف العنف والقهر لتحقيق هذا فالاعتقال والتعذيب والفصل من العمل والمحاكم الاستثنائية ، والشرطة ، والجيش ، وأجهزة المخابرات، وأهل ثقة

النظام في كل مواقع العمل كلها موجهة ضد أي شخص أو جماعة يختلف ، مجرد اختلاف ، مع النظام الحاكم .

وللأسف أصبحت هذه السياسة التي سنها عبد الناصر من ثوابت نظام الحكم في مصر ، وإن كان هناك اختلاف في النسبة وتنوع في الأساليب ، وإذا كانت الجماهير الغفيرة من المصريين في الحقبة الناصريَّة كانت مؤيدة للنظام الحاكم بفضل غيبة الحقائق ، وإخراس أصحاب الرأي ، وسطوة الإعلام الموجه ، وكاريزما الزعيم فإن الثورة التي شهدها الإعلام العربي والانفتاح على كافة الآراء والاتجاهات ، ومساحة الحرية التي أعطيت لأصحاب الرأي وعزوف الناس عن الإعلام الموجه ، وغياب كاريزما الزعيم ، والمنجزات الكبرى كل هذا أدى إلى فقدان مبارك ، خاصة في السنوات العشر الأخيرة ، لتأييد الجماهير مما ألجأه إلى إحكام القبضة الأمنية ، وتفعيل قانون الطوارئ المعمول به منذ هزيمة ١٩٦٧ هذا القانون الذي يعطي النظام الحاكم الحق في القبض على أي شخص ، وتعذيبه ، واعتقاله ، ومداهمة بيته دون إذن من النائب العام ، ودون تقديمه للمحكمة ودون منحه الحق في الدفاع ، ويظل هذا المتهم البريء شهوراً وسنوات ملقى في غياهب السجون دون محاكمة ودون أن يعرف أهله عنه شيئاً . وإن قدم لمحكمة يجبر على الاعتراف بجرائم لم يرتكبها تحت التعذيب والتنكيل ، ولقد راح آلاف من المواطنين الشرفاء أصحاب الرأي أو المواطنين العاديين ضحية لقانون الطوارئ الجائر وجهاز أمن الدولة القائم على تنفيذه الذي أدخل الرعب في قلوب المصريين .

لكن لكل صبر نهاية ولكل احتمال حد فقد ضجَّ الناس من قبضة الدولة الباطشة وجهاز أمنها الطاغي ولم يعد لديهم قدرة على الصبر والاحتمال أكثر من ذلك .

٥- تصدير الغاز لإسرائيل

بدأت اتفاقية الغاز في ٣٠ يونيو ٢٠٠٥ حيث وقعت الحكومة المصرية اتفاقية مع إسرائيل تقضي بتصدير ١.٧ مليار متر مكعب سنويّاً من الغاز الطبيعي المصري إلى إسرائيل، لمدة ٢٠ عامًا، بثمن يتراوح بين ٧٠ سنتا و ١.٥ دولار للمليون وحدة حرارية،

بينما يصل سعر التكلفة ٢.٦٥ دولار، كما حصلت شركة الغاز الإسرائيلية على إعفاء ضريبي من الحكومة المصرية لمدة ٣ سنوات من عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠٠٨م .

وقد صدرت عدة أحكام قضائية تقضي بوقف تصدير الغاز لإسرائيل، أولها حكم محكمة القضاء الإداري في ١٨ نوفمبر ٢٠٠٨ بوقف قرار الحكومة بتصدير الغاز لعدة دول من بينها إسرائيل، وحدد قرار المحكمة سعر الغاز وكميته ومنع تغيير الأسعار لمدة ١٥ عامًا، بعد أن أقرت الحكومة آنذاك بأن سعر الغاز المصري المصدر لإسرائيل أقل بكثير من السعر العالمي .

وللمرة الثانية، يصدر حكم من محكمة القضاء الإداري في ٦ يناير ٢٠٠٩ باستمرار تنفيذ حكمها السابق بوقف تصدير الغاز بأسعار تقل عن الأسعار العالميَّة. لكن في ٢ فبراير ٢٠٠٩ قضت المحكمة الإداريَّة العليا بوقف تنفيذ حكم القضاء الإداري بمنع تصدير الغاز لإسرائيل وقبلت الطعن الذي تقدمت به الحكومة لإلغاء الحكم . ثم تحكم نفس المحكمة – الإدارية العليا - في ٢٧ فبراير ٢٠١٠، حكمًا نهائيّاً وغير قابل للطعن، بعدم اختصاص القضاء بنظر الطعن على قرار الحكومة المصريَّة بتصدير الغاز المصري إلى إسرائيل، باعتباره عملاً من أعمال السيادة .

وكان تصدير الغاز لإسرائيل بسعر أقل من سعر التكلفة في الوقت الذي يتصارع المصريون على الحصول على أنبوبة بوتاجاز تلك الأنبوبة التي يصل سعرها في أوقات الأزمات إلى أكثر من ٥٠ عاماً – من أهم الأسباب التي فجرت ثورة ٢٥ يناير مع غيرها من الأسباب الأخرى .

٦- خالد سعيد

من أشهر ضحايا الدولة البوليسية خالد سعيد الذي توفي على يد رجال الشرطة في منطقة سيدي جابر في السادس من يونيو ٢٠١٠، بعد أن تم ضربه وسحله حتى الموت أمام عدد من شهود العيان .

ووفاة شاب آخر هو السيد بلال أثناء احتجازه في مباحث أمن الدولة بالإسكندرية، بعد تعذيبه في إعقاب حادثة تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية.

ويصل إجمالي ضحايا عنف وزارة الداخليَّة المصرية لنحو ٣٥٠ شهيد في آخر ثلاث سنوات، حسب تقديرات المنظمات المعنية بحقوق الإنسان .

مما دعا إلى إنشاء الناشط الالكتروني وائل غنيم (١) صفحة (جروب) " كلنا خالد سعيد " على شبكة الفيس بوك الذي جذب تعاطف مئات الآلاف من المصريين والذي دعا ، كما دعت أحزاب وجماعات ومنظمات وحركات أخرى ، إلى مظاهرات ٢٥ يناير لتحرير مصر من الفساد وإسقاط نظام الرئيس مبارك . كما كان للصفحة أو المجموعة دور كبير في التنسيق بين الشبان ونقل صدى المواجهات مع رجال الأمن.

فالثورة عندما بدأت يوم ٢٥ يناير كانت مكونة من الشباب الذين شاهدوا أو انضموا لصفحة (كلنا خالد سعيد) ثم تحولت إلى ثورة شاركت فيها جميع طوائف الشعب المصري.

٦- الثورة التونسية

هي ثورة شعبيَّة اندلعت أحداثها في ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ تضامنًا مع الشاب محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ تعبيرًا عن غضبه على بطالته ومصادرة العربة التي يبيع عليها وقد توفي البوعزيزي الرابع من يناير ٢٠١١ نتيجة الحروق أدى ذلك إلى اندلاع شرارة المظاهرات في يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ وخروج آلاف التونسيين الرافضين لما اعتبروه أوضاع البطالة وعدم وجود العدالة الاجتماعية وتفاقم الفساد داخل النظام الحاكم. أجبرت هذه المظاهرات التي شملت مدن عديدة في تونس الرئيس بن علي على التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد بشكل مفاجئ بحماية أمنية ليبية إلى السعودية يوم الجمعة ١٤ يناير ٢٠١١ .

---

(1) وائل غنيم شاب مصري يعتقد كثيرون أنه أبرز مفجري ثورة ٢٥ يناير ، قال عن نفسه، في تصريح صحفي، أنه "مناضل كيبورد"، في تواضع أمام من قدموا أرواحهم في هذه الثورة،اعتقل بعد قيام الثورة بيومين وأفرج عنه يوم ٧ فبراير .
شكك البعض في مسئولية وائل غنيم عن إنشاء صفحة " كلنا خالد سعيد " .

وقد شجَّع نجاح الثورة التونسية القوى الوطنية المصرية على السعي لتغيير هذا النظام الفاسد ؛ فقد أعطتهم ثورة تونس أملاً في إمكانية التغيير السلمي للنظام الذي فقد شرعيته وزكمت رائحة فساده الأنوف . (١)

وبنجاح ثورة يناير وما أعقبها من ثورة ٣٠ يونيه يتطلع الشعب المصري إلى نظام سياسي ديمقراطي يحقق نهضة حقيقيَّة يشارك فيها كل الشعب المصري وتستعيد مصر مكانتها المفقودة ومركزها الشاغر الذي لا يملؤها سواها .

***

(1) لمزيد من التفاصيل حول ثورة ٢٥ يناير وعلاقتها بثورة يوليو الرجوع إلى كتابنا " دروس من ثورة يوليو لثورة يناير " دار زهور المعرفة والبركة .